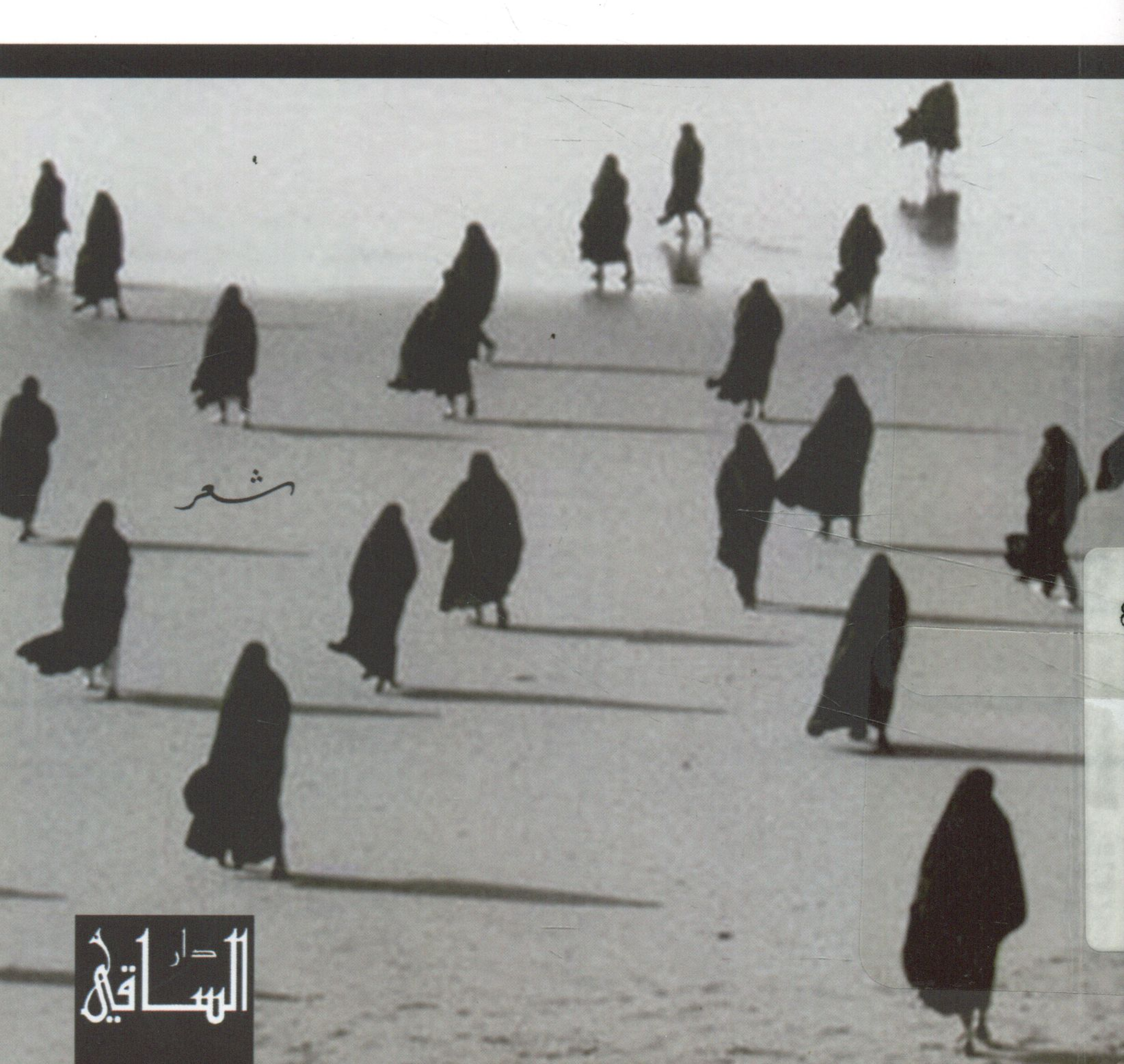
أمل الجبوري

أنا والجنّة تحت قدميك



أنا والجنّة تحت قدميك

صدر للمؤلّفة

خمر الجراح، دار عشتار، منشورات آمال الزهراوي، بغداد ١٩٨٦.

أعتقيني أيتها الكلمات، دار الشروق، الأردن ١٩٩٤، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٩.

لك هذا الجسد لا خوف علي، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩، الطبعة الثانية ٢٠٠٠.

٩٩ حجاباً، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٣، حاز الكتاب جائزة أفضل ديوان لعام ٢٠٠٣ من النادي العربي اللبناني في باريس.

هاجر قبل الاحتلال، هاجر بعد الاحتلال، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨، حصد الكتاب جائزة جومسكي بعد ترجمته للإنكليزية وترشّح ضمن القائمة القصيرة لجائزة الأدب العالمي في نيويورك عام ٢٠١٢ ليكون الكتاب العربي الوحيد، واختير كأحد أفضل خمسة كتب شعرية في أميركا لعام ٢٠١١.

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سحر مغنية

أمل الجبوري

أنا والجنّة تحت قدميك

نصوص تسجيليّة



الطبعة الأولى، 2013

ISBN 978-6-14425-750-0

حاولنا جهدنا الاتصال بصاحب حقوق صورة الغلاف و لم نوفّق.
الرجاء ممّن يعرف عنه شيئاً إعلامنا.

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

المحتويات

"تخبّطَت ذواتُنا فلَمْ يَعُدْ بإمكانِ أحَدٍ أن يَنْجُوَ"

إلى وفيقة، دلة، عليّة، فضيلة، مهديّة، سميرة، سُكَينة، عزيمة،...
إنعام، فاطمة، حنان، مجاهدة، أمّي

وكُلٌّ أمٍّ تجسّدت مأساتُها في مصائبِ الأمّهاتِ العراقياتِ؛

الأمُّ... لا يهُمُّ إذا كانتْ أمَّ القتيلِ أو أمَّ القاتلِ، أمَّ السارقِ أو أمَّ المسروقِ، أمَّ الأسيرِ أو أمَّ السجّانِ، أمَّ الثائرِ أو أمَّ الإرهابيِّ؛

الأمُّ وحْدَها مَنْ تعرف جريمةَ اغتيالِ الحياةِ حتى وإن كانتْ بعدالةِ القضاةِ أو بسطوَةِ الطغاةِ؛

وحْدَها تعرفُ مامَعْنى أن تفقدَ الأمُّ أعزَّ ما تملكُ... وَلَدَهَا!

العراق غير الرحيم

لا تحزَني إنّ الله معكِ
لا تحزَني أيّتها الأمُّ،
حُزنُكِ هُوَ خَلٌّ يُفسدُ حليبَ ثدييْكِ.
أيّتها الأمُّ أنتِ محظوظةٌ جداً بقلوبٍ أنجبها رحْمُكِ؛
البشرُ جميعُهم،
حتّى الملائكةُ لَنْ تحلمَ بأكثرَ من قلبٍ قابلٍ للخرَسْ
إلا قلبُكِ حين يتعبُ يواصلُ الحياةَ بقلوبٍ أنتِ أمُّها ولا أحدَ غيرُكِ
أيّتها الأمُّ لا تهتمّي لنباحِ الطائراتِ حينما ذهبْتِ إلى النهرِ القريبِ تجلبينَ الماءَ للصغارِ.
إنَّهمْ لَنْ يقترِبوا مِنْ قلبِكِ الكبير،
لأنّهُمْ لا يُريدونَكِ أن تتوقّفي عن النَدبِ والنُواحِ.
النُواحُ موسيقى تؤكّدُ أنّهُمْ انتصروا عليكِ في كلِّ هذهِ الحروبِ.
سيثقبونَ قلوبَكِ الصغيرةَ

إنَّهُمْ لا يُريدونَ أن تُرَبِّي قُلوباً
بل... جنوداً للحروبِ القادمة.
أيَّتُها الأمّ لقد خلَقكِ الله للبكاءِ والانتظارات:
حوّاءُ بَكَتْ وَليدَها،
مريمُ فُجِعَتْ بصَلْبِه،
زينبُ شَهِدَتْ موتَ أعزِّهِمْ وعادَتْ بلا قلبٍ غيرِ واحدٍ تُرِكَ للنَدبِ السنوي.
وأنتِ يا أمّي بكَيْتِ حينما لم يَحْمِ القُرآنُ ولا الرايةُ البيضاءُ مَلِكَكِ فيصلَ وآلَ بيته[1]
شهِدْتِ موتاً فجائعياً وانتقاماتْ
ولم تعودي تعزفينَ على قيثارَتِكِ كلّما ذهبْتِ إلى بُستانِكِ في الجادريّة[2]،
إلى بائعِ السكاكينِ والسجائرِ وقرّرت أن تخوني والدَيْكِ بالتدخينِ،
وأن تقطعي كفّكِ بالسكينِ حتّى لا تصفقي "لزعيمٍ قادم" بعدَمَا كنتِ تُحبّينَ المَلِكَ وولدَه.

١ إشارة إلى مقتل آخر ملوك العراق فيصل الثاني من قبل ضباط انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨، حيث رفع الملك الشاب الراية البيضاء والقرآن هو وأسرته حينما واجه الانقلابيين من العسكر، إلا أنهم أطلقوا النار عليه وقتلوا جميع أفراد العائلة المالكة. ويذكر أن الضابط الذي أمر بفتح النار قد عاش مثقوبَ الضمير تتراءى له هذه الأسرة في منامه الذي تحوّل إلى كوابيسَ قادته إلى الانتحار.

٢ الجادرية هو أحد أحياء بغداد المرموقة، وكان في بداية تأسيس الدولة العراقية عبارةً عن مجموعةِ بساتين تسكنها عوائل بغدادية معروفة.

أمّي هل تصوَّرتِ أنّكِ ستشهدينَ كلَّ ما مرَّتْ بهِ بِلادُك؟!

انقلابٌ يسلّمكِ لانقلابٍ؛

"ثورةٌ" تُذبَحُ بانقلابٍ؛

حُكومةٌ تَسقطُ بانقلابٍ؟

وحربٌ طويلةٌ بأحزانِها ومُرْعبةٌ بنُعوشِها،

حتى غدتْ مقبرةُ السلامِ[1] وكأنّها ناطحاتُ السحابِ في مانهاتن

قبورُ شهداءِ الحربِ الذينَ لَمْ يصدّقوا أنّهم كسبوا مجدَ الحياةِ

بالهروبِ مِنْ خدمةِ العَلَمِ إلى هنا،

هنا حيث سُجِّلوا في كتابِ الشهداءِ أو القتلى لا فَرْق

لَنْ يَجْرُؤَ بعدَ اليومِ أيُّ "رفيق حزبي"[2] على مداهمةِ بيوتِ الفارّينَ

مِنَ الخِدمةِ،

ويُجْبِرُكِ يا أمّي على توقيعِ تعهّدٍ بإرسالِ ولدِكِ إلى الجبهاتِ،

لتزفّيهِ إلى حقلِ ألغامٍ وليلِ هاوناتٍ وحجاباتٍ لعدوٍّ هُوَ جارُكِ.

كُنتِ تسألينَ:

علامَ هذا الموتُ وحِصادُه المشؤومُ لقلوبٍ كانتْ تحلُمُ لا غَيْر؟!!

---

١ مقبرة السلام هي أكبر مقبرة معروفة في العالم، وتقع في مدينة النجف الأشرف، يُقال إن مساحتها تزيد على مساحة العاصمة باريس.

٢ الرفيق الحزبي هي إشارة إلى المسؤولين في حزب البعث الذي حكم العراق (١٩٦٨–٢٠٠٣) وأغرق البلاد في حروب عقيمة كان مصير أي جندي يتخلف عنها هو الإعدام، لذلك اضطرت بعض العوائل إلى التوقيع على تعهد رسمي وبراءة من أبنائها الهاربين من خدمة العلم والالتحاق بالجبهات.

وبماذا تحلُمُ قلوبُ الشبابِ؟
تحلُمُ بامرأةٍ، بسريرٍ مملوءٍ بكتابِ اللهِ ورجوع الطفل إلى صباه.
كانوا يقولون... القتالُ منْ أجلِ الترابِ والأرضِ
لكنَّ الأرضَ أرضُ اللهِ،
واللهُ هنا وهناكَ كانَ وما زالَ واحداً فلماذا أوقِّعُ على ورقةِ استشهادِكَ؟
لأهَلل بحَمْل شارةِ أمِّ الشهيدِ!!!
أيّتُها الأمُّ، لَوْ كنتِ تعرفينَ أنّكِ ما إنْ وَدّعْتِ قَلْباً
حتّى أحْسَسْتِ أنّكِ ستكونينَ أمَّ شهيدٍ بعدَ عامَيْنِ،
لماذا؟
هلْ النفطُ هُوَ أغلى من ولَدِي؟!
هلْ غضبُ السلطانِ حَقٌّ وأمومَتي باطلٌ؟!
لماذا عليّ أنْ أتوَسّطَ جاريَ الحزبيّ ليملأَ لي استمارةَ براءةٍ من قلبِيَ الأصغر
الذي أصرَّ أنْ لا يكون وقوداً لحرب الأشقّاء.
أرادَ أن يحْيا وأنْ يعقدَ قِرَانَهُ المؤجّلِ منذُ الافق
ولكنْ يا أمّي، هُوَ البحرُ قدرُ ومصيدةُ العراقيينَ؟
كانت فَيْلَكَةُ[1] جزيرةٌ شهِدَتْ لحظةً استثنائيةً في قتلِ الأخِ لأخيهِ،

[1] جزيرة فيلكة هي إحدى الجزر التابعة لدولة الكويت، وقد شهدت لحظة استشهاد الشهيد فاضل عبد علي، وهنا وصف حقيقي لما دار هناك وتوثيق قصص العائدين

حربٌ بالنيابة،

هكذا كنتِ تُسمّينها، ولكنّك كُنتِ تخافينَ الوشايات.

تريدينَ أن تبقي في نظرِ الناسِ الحاجّةَ التي لم تغادرْ منزِلَها إلاّ لزيارةِ الأولياءِ وأداءِ الولاءِ للوطنِ.

ورفضْتِ أن ينادوكِ بأمِّ الجبناءِ أو المتخاذلين،

رغمَ أنّكِ أيّتها الأمُّ كنتِ قد تظاهرتِ بالعَمى عام ١٩٧٣ حتى

تقنعي القائدَ العسكريَّ في معسكرِ منصوريةِ الجبلِ[1] لتدريب الفدائيين،

إنَّ ولدَكِ لايصلحُ للعملِ الفدائيِّ منْ أجلِ فلسطين،

فهوَ الوحيدُ المعيلُ لقلبِكِ الأعزَلِ إلاّ من البلادِ،

وأولادِكِ وكلِّ شيءٍ جميلٍ

ومن السيجارةِ التي تنتقمينَ بها من الرفيقِ الحزبيِّ،

ومنْ سُلْطَةِ والديْكِ.

هلْ عرفْتِ أيّتُها الأمُّ بما جرَى في جزيرة "فيلكة"؟!

كانَ ولدُكِ يتحدّثُ مع صديقِهِ لاعنينَ الحربَ الخطأ.

كُلُّ الحروبِ أخطاءٌ يا ابنتي، كنتِ تهمُسين،

والأمُّ وحدَها مَنْ تدفعُ الثمنَ.

من ميدان المعارك بعد انسحاب الجيش العراقي من الكويتِ عام ١٩٩١.

١ معسكر منصورية الجبل القريب من محافظة ديالى في العراق هو أحد معسكرات التدريب للفدائيين الذين كانوا يقاتلون إلى جانب أشقائهم الفلسطينيين، وقد تأسس بعد أحداث أيلول المعروفة لدى العرب، وهو القتال الذي حدث بين السلطات الأردنية وأعضاء منظمة التحرير الفلسطينية في السبعينيات.

هربتْ منْ عاصمَتِها بغداد لكَيْ تُبعدَ شبحَ رسالةِ المسؤولِ الحزبيِّ وهُوْ يزفُّ لَها شارةَ أمِّ الشهيد.

وما كُنْتِ لاعنةً أحداً لكنَّك لعَنْتِ هُروبَك،

أعرفُ يا أمِّي أنَّ قلبَكِ الأوّلَ لهُ حدْسُ الأنبياءِ

يتنبّأُ بما لا يُدرِكُهُ غيرُ الله،

ألسْتِ أنتِ الله في ثَوْبِ امرأة؟!!

هربْتِ ولكنّ ولدَكِ لَمْ يَهرُبْ من ملْجئه،

لَمْ يُكمِلْ مُزاحَهُ مع صاحِبِه الذي توسَّلَهُ عدمَ تركِهِ جثّةً،

خوفَ المنتقمينَ، إذا ما غَدَرَ بِهِ الموتُ

ضحِكَ ولدُكِ غاضباً: هلْ جُننْتَ!

هلْ نسيتَ أنّنا في قبرٍ واحدٍ ولا يمكنُ للميتِ إلاّ أن يسحبَ المنقذَ معهُ!

لاتخفْ...

لَمْ يُكمِلْ حتّى ألقمتْ الطائرةُ عتادَها بقلبِ الجنديِّ الذي كانَ يَخشى الـ...

أيّتُها الأمُّ، قفزَ ولدُكِ غيرَ مبالٍ بقاذفة أخرجها من فمِ الطائرةِ مقاتلٌ من دولةِ الأشقاءِ

بينما كانَ الطيّارُ الأمريكيُّ يتطلّعُ إلى قابيلَ وهو ينحرُ أخاهُ هابيل وماتا.

القَلْبُ الثاني لأمّي.

وابنُ صديقتِها كأنّهما كانا على موعدٍ معَ الأمهاتِ.
لْم يبردْ دَمُ القمرين
حتى أعلنتْ الحكومةُ وقفَ إطلاقِ النارِ الرسميِّ.
كانَ طريقُ الموتِ[1] يشتعلُ بالقصفِ السجاديّ للأمريكانِ
والمنسحبونَ لا عاصِمَ لهُمْ غيرُ ميتةٍ مرعبةٍ
أيّتُها الأمُّ خارجَ أسوارِ منزلِكِ يُهلِّلُ المنهزمونَ لنهايةِ الحربِ
القصيرةِ بأيامِها الطويلةِ بمآسيها،
وأنتِ تلعنينَ القائدَ وتشتُمينَ زوجتَهُ لأنّها خبّأتْ أولادَها في سواترِ
قلاعِها البعيدةِ عن الطائراتِ
لا يهمُّ، اشتُمي يا أمّي، الحمدُ للهِ أخبرَنا "المسؤولُ الحزبيُّ"،
لوالدةِ الشهيدِ الحقُّ في أشكالِ الغضبِ والتعبيرِ عن الحُزنِ،
حتى لوْ تعَدَّى ذلكَ إلى شَتْمِ "القيادةِ" "لاَ سَمَحَ اللهُ"
أيّتُها الأمُّ لكِأنَّ اللهَ خلقَكِ لِهذا الدورِ في العراقِ:
أن تندبي الموتَ،
عفواً، تُرحّبي بهِ وتُهلِّلي لهُ.
كُلُّ الأمّهاتِ في العالمِ يفرَحْنَ بالحياةِ ويرْجُمْنَ الموتَ والحربَ،
إلاّ أنتِ أيّتُها الأمُّ في العراقِ فدَوْرُكِ مُغايرٌ،

[1] التسمية التي أطلقها الأمريكان على الطريق المؤدية إلى المطلاع والبصرة على طول الحدود العراقية – الكويتية، حيث جثث الجنود العراقيين التي كانت تنتشر على طول هذه الطريق، والتي قام الأمريكان بعد ذلك بدفنهم بشكل جماعي.

ونقمةُ النفطِ ولعنةُ الإمامِ حلَّتْ عليكِ لا محالةَ.
حتى وإنْ تغيَّرَ الحالُ وأصبحْتِ حرّةً ولا تُجبَرينَ على البراءةِ من
ولدِكِ العاقِ للحربِ،
لكنّكِ اليومَ حينما فَرِحْتِ وحَزِنْتِ،
لنهايةِ خوفِكِ وأنتِ تهبّينَ من الفجرِ لتكُوني في مقدّمة الباحثينَ
عنْ أولادِهم هناكَ
منذُ عام ١٩٩١.
انتظرتِ هذا الصباحَ لتذهبي إلى المحاويلِ[١].
كنتِ تخافينَ إخبارَ جيرانِكِ عن اختفاءِ آخرِ ما تبقّى لديكِ من
قلوبٍ،
آخرُ قلبٍ انتُزِعَ سهْواً وبطْشاً.
ولدُكِ لَمْ يكُنْ معارِضاً
لَمْ يَدَّعِ البطولةَ و لَمْ يُشارِكْ في انتفاضةِ الشعبِ ضدَّ "الرئيس".
كانَ يخافُ على قلبِكِ.
يسألُكِ الصحفيُّ البطرانُ: "إذاً ما الذي ذهبَ بِهِ إلى المحاويل؟!"
أعرفُ الإجابةَ التي كنتِ تكتُمينَهَا طوالَ اثنيْ عشرَ عاماً،
ذنْبُهُ وجريمتُه كان توبيخَ الناسِ،

١ المحاويل هو معكسر يقع بالقرب من مدينة بابل، حيث شهد تصفية أغلب الذين شاركوا في انتفاضة العراقيين عام ١٩٩١ ضد النظام وغيرهم من الشباب الذين سيقوا كقطيع أغنام ذنبهم أنهم كانوا هناك في المحافظات التي سقطت بيد المنتفضين.

فهوَ حَدَسَ بأنَّ الرئيسَ باقٍ،
والمسؤولَ الحزبيَّ ممكن أن يعودَ ثانيةً،
والشاعرَ المخبرَ ممكن أن يراقبَ خُطواتهِ ليخبرَ جلاّديهِ عن شقيقِ الشاعرةِ المتهمة بـ"الرئيس".
كلُّ هذا جعلَهُ يصرخ بالمتظاهرينَ:
"صدّقوا هذا عرسُ واويّة[1]،
عُودوا يا مساكينَ إلى البيوتِ"،
لمْ يُكمِلْ حتى أكمَلَتْ الدباباتُ لتحاصرَ صوتَهُ وتحشُرَهُ في الكيات[2] المتّجهةِ إلى المحاويلِ.
أيّتُها الأمُّ صراخُكِ لم يُجْدِ نفعاً
لذنبِكِ أنّكِ أنجبتِ في الزمنِ الخطأ
وأنّكِ حملتِ شهادةَ أمٍّ عراقيةٍ،
إذاً، ما عليكِ إلا أن تصفّقي "لسلامة القائد"
وتندُبي حظَّكِ لأنّهم أخطأوا الأمّهاتِ،
فالشبابُ هُم مَنْ يستحقّونَ صبيحةَ هذا الموتِ لأنّهم عراقيونَ بامتيازٍ.
لَمْ يصدّقْكِ ولَمْ يصدّقْهُ أحدٌ.

---

١ عرس واوية: مثل عراقي (باللهجة المحكيّة) يقصد به أن الأمر لن يدوم طويلاً، والواوية جمع واوي وهو الثعلب.

٢ هي الباصات الصغيرة وتسمى باللهجة العراقية بالكيات.

كانتْ أوامرُ حسين كامل[1] أسرعُ منْ وصولِ دَعَواتِكِ إلى إمامكِ الحسين

الذي لم ينجُ هُوَ الآخرُ منْ عدُوٍّ الحسين.

لا يهمُّ أيّتُها الأمّ،

أنتِ الآن أوّلُ مَنْ سيُخْرِجُ أصغرَ القلوبِ التي أنجَبْتِها يوماً بالخطأ في أرضِ العراقِ.

هلْ جهّزتِ أحْلَى وأنظفَ وأقوَى كيسٍ لديكِ؟!

هلْ تعرفينَ أيّتُها الأمُّ أنّك اليومَ ستحتفلينَ بلقائِه بعدَ تلكَ السنواتِ وستخبرينَهُ عن نهايةِ جلاديه؟!!!

لا تفزعي أيّتُها الأم إذا أخطأتِ بعدِّ عظامه

ووضعتِ في الكيسِ أصابعَ صديقِه الأصمِّ،

أو أنّكِ زحفتِ قليلاً وظننتِ أنّ هذه القدمَ لابنكِ.

ولكنّكِ بعد فحص DNA عرفتِ أنّها عظامُ ابنِ شقيقتكِ

التي ماتتْ وهيَ تحلُمُ بلحظةٍ تُمسكُ فيها بكيسٍ حتى ولو كانتْ أثمانُهُ حياتَها كلَّها،

---

١ حسين كامل هو صهر الرئيس العراقي صدام حسين والذي اشتهر بقسوته، وكذلك وحشيته في القضاء على انتفاضة عام ١٩٩١، وهناك قصة يتداولها العراقيون وهي: بعدما اعتذر أحد الضباط العراقيين عن قصف قبة الإمام الحسين حيث اختبأ المتفضون بعد سيطرة الدولة على مدينة كربلاء مما اضطر حسين كامل إلى إعدامه ووقف قبالة مرقد الإمام ليوجّه القذيفة الأولى للقبة بتعليقه "إني حسين وأنت حسين"، بعدها أصيب حسين كامل بمرضٍ غريبٍ في دماغه.

فرحةً برحمةِ أن تعثرَ الأمُّ على ابنِها المفقودِ،
ولو عظاماً، وتلعنُ دونما خوْفٍ، على شاشاتِ التلفازِ،
صمتَ العالَمِ وقسوةَ أن تكونَ الأمُّ أمّاً لولدٍ في هذا العراقِ غيرِ
الرحيمِ.

يا وليد يا أوّل أولادي وآخرَهم

يا وحيدُ

ياوليدُ[1]

يا ابنَ أمّي

يا وَلدي الذي حَبُلَ بِي

وطارَ مَعي

يومَ سَرَقوا لُعْبَتي

وكنتَ أنتَ وُلِدْتَ قبْلَ اوانِ أمومَتي

يوْمَ بَدَّلْتَ هويَّةَ أمِّكَ

بِي

وقُلتَ أنْتِ عمَّتي

وخالَتي

لا، أنتِ أمُّ الأمّهاتِ

لَمْ تكُنْ دارُ جَدِّكَ على وُسْعِها مُلْكاً لي

---

١ وليد شاب عراقي ، مات مسموماً على نحوٍ غامض عام ٢٠٠٢.

لكنَّكَ جَلَبتَ بطُفولتكَ فضاءاتٍ وحدائقَ
وزرعتَ بِجَمالِكَ كلَّ رُكْنٍ في أرواحِنا
وشَتَلْتَ مكاناً للفرحِ بطفلٍ معجزةٍ في عائلةٍ
لَمْ تكُنْ تُحبُّ الأطفالَ
الذين سيكبرونَ
وما إن تَكبرَ سنضعُ أيدِيْنا على صَمّامِ القَلَقِ العراقيّ
ونستسلمُ للترقُّبِ خَوْفَ أنْ تكونَ حصادَ حربٍ تلوحُ في أفقِ
حِكايتِكَ
يا وليدُ، يا حامِلاً حُسْنَ يوسفَ وأسطورةَ شابٍّ مُدلَّلٍ،
كأنّني رَبَّيْتُكَ
ورأيْتُكَ
حامِلاً كَفَّ أمّي بعدِي حينَما غِبْتُ أنا في مَنْفايَ الألمانيّ
يا بَهِيّ القامةِ أيُّها المحسودُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ
رَقَيْتُكَ بكُلِّ التمائِمِ وكلماتِ الله
وبكلِّ عطورِ الأئمّةِ وبخورِها
كنتُ أوْصَيتهُمْ بِكَ
لأنّكَ حاملُ أمومةِ أمّي
يا حبيبَها الوحيد
يا وليدُ
كيْف تجرّأ السمُّ

وتمكّنَ من افتِراسِ عينَيكَ الإلهيَّتيْنِ
كنتُ أظنُّ جمالَكَ سُوراً حَصيناً
وكنْتُ أُخبِّؤكَ لِجَفافِ السنواتِ التي سأشيخُ فيها لأمُدَّ كفَّيَّ إليكَ
وكما وَعَدْتَ أنْ تكونَ خيمةَ روحِي
وهواءَ رئَتيَّ بعدما عَزَّ المنْفى عَلَيَّ بالأوكسجين
يا أيُّها السجينُ
في موتٍ مُباغتٍ
موتُكَ لم يكنْ قابلاً للتصديقِ قبلَ ألفين وثلاثة
فمنْ يُصدِّقُ أنَّ موتَكَ سيقفُ حائلاً بينَ سَنواتِكَ العشرين
وبيْنَ حُلمِ إطلاقِ سَراحِكَ منْ خِدمةِ العَلَمِ
العَلَمُ الذي أذلَّكَ مِراراً.
يا ضِياءَ أمِّي،
هلْ عرفتَ
ماذا فَعلَ مَوْتُكَ المبكِّرُ جدّاً بِنا؟
بجدَّتِكَ التي كانتْ سترةَ النجاةِ لكَ؟
غيابُكَ حرَمنا منَ النُّورِ
لقدْ أخذْتَ الضياءَ يا وليدُ
أخذْتَ الضحكاتِ البريئاتِ
والنُكاتِ التي كانت تكسرُ حاجزَ الرُّعبِ منْ سجّانيكَ
أخذْتَ الوطنَ الذي وإنْ كانَ عَليلاً تحتَ الحِصارِ

لكنَّهُ كانَ مُعافىً منْ سَرطانِ الطوائفِ
والشبابُ كانوا في استراحةِ الحروبِ عامَ ألفين وثلاثة
لقدْ كانَ قلْبي
وقلبُ أمِّي
يا ابنَ أمِّي
كانتْ قُلوبُنا كريمةً معكَ
فلماذا بخلتَ علينا ببَقائك؟
و لْمْ تنتصرْ على جُرعةِ السمِّ في مقْهَى "الميلاد"[1] الذي أدمنْتَهُ
واعتادَ أن يتباهى بِكَ
بجمالكَ الذي أوقعَ صَبايا بغدادَ في حروبِ نِسائيّةٍ
منْ أجْلِ أسْرِكَ في فَخِّ الحُبِّ
لكنَّكَ لمْ تنتَبِهْ إلى أفْعَى كانَتْ تختبئُ في يومك الأخير.
الأفاعي سلاحُ الجُبناءِ،
الأفاعي غَدْرٌ
وأنتَ المغدورُ بهذا الموتِ.
لماذا خذلْتَ قَلبَ أمِّي؟
رَمَّلْتَها،
سحبْتَ هواءَ اللهِ،
ضياءَ أيّامِها

---

١ يقع مقهى الميلاد في مجمع ٢٨ نيسان السكني – الصالحية ببغداد.

حينما لَمْ تُخْبِرْها بأنَّكَ سابقُها إلى وَادي السَلام
كانَتْ تُوصِيكَ بأنْ تُقيمَ لَها أفْخَمَ عَزاءٍ وقبرٍ لِصْقَ جَدِّكَ
وأنْ لا تَنْسَى
ماءَ الورْدِ وشُموعَ الإمامِ،
ولا تَنْسى شراءَ كَفَنٍ تتفرَّدُ بِهِ هِيَ عنْ صَديقاتِها
وكلِّ جيرانِها
لِتَتَباهَى هُناكَ في الجنّةِ المؤجلةِ.
منْ جديدٍ صحونا على غارةِ الموتِ... الموتُ أعنفُ أسلحةِ اللهِ،
وأصعبُ اختبارٍ لِصَبرِنا.
يا وليدُ
يا ابْنَ قلْبي
يا وحيدَ الأبْناءِ المتعدِّدِ الأمَّهاتِ
ولا أمّ تَنوحُ اليومَ فَوْقَ قبْرِكَ
لأنّنا اكتَشفْنا كَمْ أنتَ مَحْسودٌ أيضاً بهذا الموتِ
الذي شَهِدَ زَفافَ الأزقَّةِ وموسيقى العُرْسِ
وكلِّ الجيرانِ الذين نامُوا مُبلَّلينَ بِدُموعِ قَتْلِكَ
وفجيعةِ رحيلِكِ
مَحْسودٌ على عَزاءٍ في زمنٍ لَمْ تُسرَقْ فِيهِ الجنازاتُ
ولَمْ يُقتلْ المُشيّعونَ وهُمْ يتوَجّهونَ صَوْبَ وادي السلام
مَحْسودٌ بِهذا الموتِ يا وليدُ

فلا مُثلَّثَ للموتِ أمامَكَ
ولا خَلْفَكَ
لكنَّ الأمّهاتِ اللواتي انتَميْتَ إلَيهُنَّ
لَحِقْنَ مُسْرِعاتٍ بِكَ
فلَمْ تَعُدْ كَما كُنتَ وَحيداً
يا طفلاً على هذا الغيابِ
يا وليدُ
يا وحيدي
ياولدَ مُهْجَتي
يا هواءَ بغدادَ البعيد.

بَسْ عاد[1]

مَلَّ خَالي مِنْ زوجةٍ لا تُنجبُ إلاّ البنات
في كُلِّ ليلةٍ يقولُ لَها:
أخافُ أنْ تنضبَ رُجولَتي
ولنْ أتمكّنَ منَ الإمساكِ باسْمِي ونَسَبي
فبَناتُكِ سيذْهبْنَ ذاتَ يومٍ
للأزواجِ،
أو للجحيمِ.
أريدُ منكِ الولدَ وإلاّ كُنْتِ في عِدادِ المَنْسيّاتِ
يا فضيلةَ يا ابنةَ الجَنوبِ
كنتُ أظنُّكِ ستملَئينَ بيتَنا بالأولادِ
وستَحفَظينَ فيهِم والدي وزَهْوي أمامَ الرجالِ
ملَلْتُ منْ وُعودِكِ لِي في كلِّ ليلةِ حُبٍّ
أسْرَفتُ كثيراً فيكِ

١ وتعني باللهجة العراقية "كفى"، وهي أيضاً تستخدم اسماً يطلق على الإناث.

واحدةٌ

اثنتان

ثلاثةٌ

أربعٌ

"بَسْ عَاد" يا أمَّ البناتِ

هكذا سَأُسَمّي ابنتَكِ الخامسةَ.

كانَ اللَّومُ نذيرَ خيْرٍ ذاتَ يومٍ،

فجاءَ أحمدُ[1]... الوليدُ... الهِبةُ

النذرُ والنذيرُ، الذخيرةُ للمهديّ

خالي اليتيمُ منذُ اختطافِ أخيهِ الوحيد

أحمدُ اختصرَ زَعلَ أبيهِ

وحَوَّلَ غضبَهُ على أمِّهِ إلى احتفالٍ وكرنفالٍ

بسُلْطةِ الولدِ.

يا أحمدُ، يا واحداً

لَمْ تلدْهُ الأمّهاتُ قبلَكَ،

وَلا أيّةُ فرحةٍ تُعادلُ شَهْقةَ أمِّكَ التي أصْبَحْتَ ضمانةً لبقائِها

ووجودِها في ربْحِ إنجابِ الذُّكورِ،

حمَيْتَها منْ غَضبِ أبيكَ.

يا أحمدُ، دارَتْ الأيّامُ

---

١ هو الشهيد أحمد مهدي الذي أُعدم عام ١٩٩٩.

وكبُرْتَ وكانا لا يُريدانكَ أنْ تكبُرَ.
حتّى تقدّما لله بكُلِّ النُذورِ منْ أجْلِ أنْ تبقَى أسيرَ طُفولتِكَ
لكنَّ السنواتِ لا تسمعُ،
وتأخُذكَ عنوةً حتّى غدَوْتَ زينَ الشبابِ،
قمراً ينيرُ ظلامَ انتظارِ أبيكَ،
لِختْمٍ وكنزٍ اسمُهُ الوَلَدُ.
لكنَّكَ يا وَحيدَ أبيكَ،
يا قُرَّةَ عينِ أمِّ البناتِ،
خَبّأكَ القَدرُ ليومٍ أسْوَد،
يحتاجُ فيهِ والدُك إلى هِمّةِ الجبالِ كلِّها،
وصَبْرِ أيُّوبَ كلِّه،
ليُواجِهَ سجّانيكَ وقاتليكَ
الذين لمْ يكتَفوا باغتصابِ رأسِكَ الفتيِّ بالرصاصِ،
بلْ تمادوا بإجبار أبِيكَ على تسديدِ ثمنِ الطلقاتِ التي توَسّدتْ فمَكَ
الذي لمْ يُكملْ بسْمَلتهُ بوَالدَيْهِ،
وتوسُّلَهُ لله أن يتمكّنا منْ تسديدِ دَيْنِ الرصاصِ،
قبلَ أن يجثُوَ الأبُ على وجْهِهِ غيرَ مُصدّقٍ،
والأمُّ تَصرُخُ صَمْتاً بتعليماتِ دائرةِ الاستخباراتِ العسكريّةِ،
التي شَقّتْ وجْهَها إلى نصفَيْنِ:

واحدٍ يبحثُ عنْ وَليدِها النائمِ في بُحيْرَةِ دَمِهِ
وآخرَ يُغمِضُ عيْنَيْ أبيهِ التي هرَبتْ إلى أسْرَعِ مَوتٍ في التاريخِ،
خَوْفاً منْ مُجرَّدِ التفكيرِ،
بِدفْعِ ثمنٍ لمَوْتِ وحيدِ أُمِّهِ وأبيهِ.

تحصيل حاصل

أحببْتُ أصدقائي وكنتُ أظنُّ أنّهمْ أقرب منّي إليكِ
لأنّكِ أمّي، وهذا تحصيلٌ حاصلٌ
فكلّما عدتُ من المدرسةِ لأكبرَ
تاركةً إيّاكِ إلى جامعةِ بغدادَ كليةِ الآدابِ
لأنّني كنتُ أعرفُ
سيُعيدُني النهارُ في نهايةِ الأمرِ إلى حضنِكِ حتى وإنْ التهمَ الأخوةُ
جعفرا[1] كلَّ أيامي
فلماذا كنتِ تغضبينَ وتزْعلينَ مثلَ طفلةٍ؟!
ولا تتوقّفين عنِ اللّوْمِ
قلتُ لكِ يا أمّي: اللّوْمُ يُورثُ المللَ والشيخوخةَ،
وأنا لا أريدُكِ رَديفاً لهذا السرطانِ
أنتِ أحلَى قمرٍ في ليلِ العراقِ المظْلمِ والظالمِ

[1] هي مجموعة الأحرف الأولى لبعض الشعراء.

كانَ شُعاعكِ هوَ سِرُّ اختراعِ مها الألوسي[1] لشمعتِها
الضياءُ اختزلَ الظلامَ
وأنتِ اختزلتِ النساءَ
لتتفرّدي بالقلقِ،
بالحبِّ العاري منْ أيِّ شرطٍ،
والتضحياتِ، وكأنّكِ حمّالةُ هذا الكونِ
أعودُ إلى الوقتِ
والأصدقاءِ
كنتُ أظنُّهمْ السكّرَ لمرارةِ الأيّام
لكنّهُم سُمُّ أفاعٍ زيّنتْ طَعمَ الصداقاتِ
ومكائدَها
وزمانِها الذي لمْ ينتمِ إلاّ للخياناتِ
ولِمَزاداتٍ خلعَتْ عنها أقنعتَها بعدَ السقوطِ الكبيرِ عام ٢٠٠٣
صدقُها لا يَنتمي إلاّ للأكاذيبِ
كلُّ واحدٍ منْ هؤلاءِ غابَ في جُبِّ حكاياتِهِ
ونَسِيَ أنّكِ كُنتِ شاهدةً وشهيدةً حيّةً
تُشيرُ إلى مَزابلَ كبرَتْ بِها حقولُ الوطنِ المخدَّرِ
لمْ تَعودي تَغضبينَ الآنَ،

---

[1] مها الآلوسي: مهندسة معمارية عراقية اخترعت في بداية الألفية الثالثة شمعة بمواصفات جعلتها تحصل على براءة اختراع من ألمانيا.

لأنّكِ تيقّنْتِ مِنْ ندَمي ولَوْ كانَ متأخّراً
كَمْ كُنتُ بخيلةً عليكِ بهذا النَدمِ
وَقْتَ كُنتِ هناكَ ما زلتِ تتنفّسينَ هَواءَ بغدادَ المملوءَ برائحةِ الدَّمِ،
والضوضاءِ،
والأكاذيبِ،
والشعاراتِ الزائفةِ،
والقوّادينَ،
والسماسرةِ لهذا الخرابِ،
والبطولاتِ الزائفةِ للأصدقاءِ والغرباءِ،
كلُّ هذا يحول دُونَ إكمالِ خطابِ النَدمِ إليكِ.
فَأنتِ لا تستحقّينَ إلاّ أنَ أكونَ لكِ وحدَكِ
أنا المشنوقةُ بهذهِ الأصواتِ كلَّ الدَهرِ
تسْتمعينَ الآنَ إلى اعترافاتي
لا تَحزَني أيّتُها النبيّةُ،
لَعَمْرُكِ إنَّ الأحزانَ لا تُورِثُ إلاّ الفُراقَ.
وجَعُ فُراقِكِ الذي أريدُهُ أنْ يبقى مِلْحاً ينكأُ ضَميري،
لِتَبْقي فيَّ حيَّةً لا تَنامينَ،
وَلا أصحُو أنا أبداً منْ هذا الأرقِ.

رُفاتُ المجهولين

هناكَ في الشلاجة[1] قرْبَ بصرةِ السيّابِ تنتظرُ أمُّ صالح،

أخْبروها بالحضورِ للتعرُّفِ على مَلامحِ الشبابِ الذين غابوا منذُ

أيامِ مجنون[2]

مجنونٌ جَنَّنَ تُجّارَ الدمِ،

تُجّارَ النفطِ،

وأصابَنا نحْنُ الأمّهات بجُنونِ الانتظارِ.

غائبونَ كُثُرٌ،

مفْقودونَ،

مَجهولونَ لمْ تتبقَّ منهمْ غيرُ مِزَقٍ منْ بدلاتٍ "خاكيّة"

---

١ العراق وإيران يتبادلان رفات ٢١١ عسكرياً من ضحايا حرب الثماني سنوات، هذا العنوان تصدّر صحيفة المدى العراقية يوم ٢٣-٠٥-٢٠١٢ حينما تمّ تبادل رفات الشهداء في منطقة الشلاجة الحدودي مع البصرة وبحضور ممثل الصليب الأحمر، ويذكر أن رفات شهداء العراق كانت مجهولة الهوية الأمر الذي تطلب فحص DNA، وهذا الخبر كان وقود هذا النص.

٢ هو أحد أغنى حقول النفط في جنوبي العراق الذي شهد معارك شرسة أثناء الحرب العراقية – الايرانية في أوائل الثمانينيات.

تحوّلتْ إلى سَمادٍ في أرضِ الجنوبِ.
فالموْتى لا حَدَّ لهُم مُتناثِرونَ تَتوَارَثُهم الأرضُ الحرامُ.
حَرامٌ، قالَ اللهُ: "أنْ تترُكوا الموْتَى في أرضٍ غريبةٍ،
ولا تُخبِرُوا الأمَّهاتِ عنْ أولادهِنَّ"،
أيّتُها الحكوماتُ الساقطةُ
الواهمةُ بامتلاكِ الوطنِ قرباناً لأحزابِها،
لكنّهُ سَيَبقى مُلْكَ الأمّهاتِ فقط لا غَيْر.
لا أحدَ سِواهُنَّ، فحتّى الشهداءُ كانُوا شهداءَ بالمصادفةِ والخوفِ.
لكنَّ الأمَّ، أمَّ المفقودِ ومجهولِ الهويّةِ،
ومجهولِ الرفاتِ،
ظلّتْ تستشهدُ كلَّ هذهِ السنواتِ.
بمَخاضاتٍ عسيرةِ الفَهْمِ عليكُمْ
الأمُّ وجْهُ اللهِ
الذي يسكنُ هناكَ في رَحَمِ الأمّهاتِ،
وحليبُهُنَّ هُوَ أحدُ شاراتِ اللهِ الذي يَأبَى أنْ يَحُطَّ في جسدِ رجلٍ يحملُ الأبناءَ شهْوةً،
وأمٌّ تحمِلُهمْ شهقةً ونشوةً.
الأمُّ هناكَ في الشلاّمجة أو في مَقبرةِ المِطلاع[1] بالبصرَة،

---

[1] المطلاع: منطقة على الحدود العراقية مع الكويت شهدت القصف الأمريكي للجيش العراقي المنسحب من الكويت عام ١٩٩١، ويقال إن أمريكا دفنت

كلُّ أرضِ العراقِ مَقابِرُ
أينَما وَلَّيْتَ وجْهكَ ثمّةَ أمٌّ،
أينما وَلَّيْتُمْ وجوهَكُمْ ثمّةَ شهداءُ،
ثمَّةَ مغدورون.
الأمُّ تتقدّمُ فِرقَ الصليبِ الأحمرِ لتَسْخَرَ منْ أجهزةِ تحليلِ الحمْضِ النوَويِّ،
فقلْبُ الأمِّ لا يُخطئُ أبداً،
مثلُ مغناطيس، يَدُلُّها على ثالثِ جُثَّةٍ،
ها هُوَ...
إصبعٌ يشيرُ إليهمْ،
إصبعٌ يحمِلُ دعاءَ الأمِّ الذي ظلَّ ملتصِقاً بكوْمةِ العظامِ،
وكأنَّهُ خَتْمٌ سحريٌّ،
بحِبْرِ كلِماتِها وحدَها،
لوحيدِ الأمِّ التي تعثّرتْ بهِ في حفرةِ المجهولين بشَهقاتِها.
هَبَّ فريقُ الإنقاذِ الذي كانَ يقومُ بمُهمّةِ تبادُلِ القتلى لِحَمْلِ الأمِّ منَ الحفرةِ،
لكنّهمْ لَمْ يَجِدوا غيرَ عَباءَتِها وحِرْزِ ولدِها الذي يعودُ اليومَ إلى العراقِ الجديدِ،

الجنود العراقيين القتلى والأحياء منهم في مقبرة جماعية كبيرة لم يكشف عنها حتى اليوم.

رُفاتَ حربٍ ما زالتْ نارُها في قلبِ أمِّ صالح،
التي تكوَّرَتْ وغابتْ في حفرةِ الأرضِ الحرامِ.

قفْلٌ لبابِ قبرِ الشهيدِ

كلّما ذهبّتْ أمّي إلى قبرِ الشهيدِ حاملةً معَها حقيبتَها الأزليّةَ،
المَمْلوءَةَ بالأقفالِ،
والعطرِ الذي سجّلَ هويّةَ وَلَدِها لدَى حبيبتِهِ وأمِّهِ،
وأغنيةِ كاظمِ الساهرِ التي ظلَّ ابنُ خالِه الشهيدِ أحمد يسمَعُها في قلبِهِ قبْلَ لحظاتٍ منْ إعدامِهِ.
تُحاولُ الأمُّ ترتيبَ كلِّ شيءٍ بعنايةٍ
وتخْشَى نسيانَ شموعِ عيدِ ميلادِهِ السابعِ والعشرين،
تردِّدُ في قلبِها:
مَاءُ الورْدِ...
فَمَاءُ الورْدِ يا ولَدي يختصرُ كلَّ حدائقِ العراقِ التي مُتَّ منْ أجْلِ ترابِها.
لا فرحَ ولا حزنَ يعادل نشوة الأمّهاتِ في العراقِ بالحجِّ إلى المقابرِ.
الأعيادُ الرسميّةُ وغيرُها التي اخْترَعتْها الأمُّ وصدّقتْها كلُّ حكوماتِ العراقِ،

كانتْ انتصارَ الأمِّ الوحيدَ على هذهِ الغياباتِ المبكّرة.
حقائبُ الأمّهاتِ وأكياسُهنَّ المعبّأةُ بحاجيّات الشهداء،
لَمْ تفارِقْهُمْ حتّى وهُمْ راقِدونَ في وادي السلامِ ومقابرِ بغدادَ.
ولكنْ لا سَلامَ للموْتى وسُرّاقِ قُبورهِمْ
يتناسَلُونَ مثلَ تناسُلِ الميليشيات والسُّرّاقِ في أعمارِنا.
السُّرّاقُ الصغارُ يُفسدونَ فرْحةَ الأمِّ
لا تملكُ إلاّ أن تحملَ الأقفالَ لتحميَ ذِكرياتِ ولدِها منَ المغتصبينَ
وتصرخُ بِهِمْ:
أيُّها السُّرّاقُ مَاذا ستفعلونَ بهذهِ الذكريات؟!!!
فلَيْسَ لدَيَّ مَا أهْديهِ بعدما جِئتُ بِهِ قَسْراً إلى هذهِ البلادِ
غيرَ صُوَرِهِ وبَخُورِ الأئِمّةِ وعِطرِ ماءِ الوردِ
وإطارِ الصوَرِالجديدِ في كلِّ زيارةٍ،
بعدما تسلَّلْتمْ إلى شَبابِهِ ومدفنِهِ
ألَمْ تُتْخَموا أو تَشْبعوا منْ فضلاتِ الموتَى؟!
لَمْ لم تستيقظْ ولَوْ مرّةً واحدةً ضمائرُكُمْ؟!
وتخجلوا منْ عُزلةِ الشّهداءِ في قُبورِهِمْ
ودمْعِ الأمّهاتِ وحُرقةِ الغيابِ؟!!!
يا حَوَاسِمُ[1]

[1] حواسم: مفردة تحولت بعد عام ٢٠٠٣ إلى مصطلح يشير إلى السرّاق الذين نهبوا بغداد بعد سقوطها بيد الغزاة الأمريكان والميليشيات وارتبطت أيضاً بتسمية

ما أنتمْ إلاّ أحذيةٌ تمشونَ بنفاياتِ حواسِمِكُمْ إلى نارِ العاقبةِ،
فَرِحينَ مغرورينَ
بسرقة الإطارِ والعطر .
أيُّها المُحَوْسِمونَ ألم تشتاقوا
إلى عَيْشٍ لا تُفجِعونَ بِهِ قلْبَ والدةٍ حتّى وإن كانَ الذي حَوْسَمْتُموهُ
إطارَ صورةٍ لابنِ العراقِ الشهيدِ رغماً عنْ أنفِ شبابِهِ،
حتّى وإن كان كومةُ أعوادِ بَخّورٍ لمْ يَبْقَ مِنْها بعدَ وداعِ الأمِّ للقبورِ
غيرَ رمادِ الرِثاءِ،
في هذا المكانِ الذي سيبتَلِعُكُمْ ذاتَ يومٍ،
ولكنْ دونَما إطارٍ ولا حتّى قِفْلٍ مسروقٍ
لصورةٍ معطّلةٍ.

صدام حسين لحربه الأخيرة مع الأمريكان قبل سقوط نظامه بـ"أم الحواسم".

طَريحةُ الوحشةِ

لقدْ بدَّلَ الله اسمَكِ بعدَ عامِ ٢٠٠٣
باسْمِ شابَةً جرحَ الحياةِ.
يا طريحةَ الوحشةِ،
لنْ تهنَئي بعدَ اليومِ
حتّى وإنْ طِرْتِ منَ الفرحِ بعَوْدةِ أُخْتِكِ منْ منفاها الألمانيِّ.
يا سميرةُ
هلْ عرفتِ أنَّ اسمَكِ الذي وُلِدَ ما بيْنَ ولدِكِ المخطوفِ حَسَن،
والمغدورِ الحُسَين،
سيكونُ في سجلاّتِ الأمّهاتِ المنسيّاتِ؟!!!
يا أمَّ الانتظاراتِ.
تنتظرينَ على وَعْدِ أنْ تعودَ الأيّامُ بالغائبينَ،
لكنْ يا سميرةُ، حياتُكِ انتهتْ يوْمَ انتزعوا ما قَذَفه رَحْمُكِ: قَلْبَيْكِ،
لكيْ تحتاطي وتضُمّي ولدَيْكِ بكلِّ التعاويذِ والأدعيةِ،
ولكنْ لا الأدعيةُ

ولا التعاويذُ ولا الصلواتُ قادرةً على دَرْءِ هذا الموتِ،
موتٌ لا مبرِّرَ لَهُ،
موتٌ بطقوسٍ غادرةٍ.
نَحْسُ الطائفيّةِ،
نَحْسُ مصّاصِي أعمارِ الشبابِ،
حِقْدٌ أعْمى وانتقاماتٌ،
وثاراتٌ فتحَتْ أبوابَها ولنْ يُوقِفَها حتّى اللهُ،
الذي ذهبْنا إليهِ
في تِلكَ الأيّامِ، تذكُرينَ جيّداً؟!
حتّى المجرمينَ لم يفْلِتوا منَ الموتِ المنتشرِ مثلَ الطاعونِ.
كلُّنا جميعاً في أرضٍ حرامٍ اسمُها العراقُ الشيعيّ،
العراقُ السنّيُّ،
وما بينهُما كانتْ صلواتُ السلامِ لسيِّدنا إبراهيمَ والمسيحِ خافتةً،
مُحنَّطةً،
وعزلاءَ غيرَ قادرةٍ أن ترتفعَ فوقَ أصواتِ الذبحِ،
التفخيخِ،
الدويْلاتُ التي جاءتْ بالدّريلات[1] وكاتمِ الحياةِ.
يا أمَّ الانتظاراتِ،

---

١ الدريلات: المثاقب الكهربائية، وهي من أبشع الأسلحة التي استخدمتها فرق الموت والمافيات في العراق أثناء عمليات القتل والتهجير الطائفي والتنكيل بجثث الضحايا.

يامَنْ كنتِ سميرة،

لسْتِ أنت وحدَك

غيرُكِ هناكَ ليْسَ في الشعلةِ[1] وحدَها،

في العامريّةِ،

في الأعظميّة،

في الكاظميّةِ قُربَ مسْطَرِ العمّالِ الفقراءِ،

كانتْ هناكَ طوابيرُ طويلةٌ للسفاحينَ وللمافياتِ.

انكفأنا خائفينَ منْ ذاتِ المصيرِ،

ونحْنُ نراقبُها.

لو أنّنا تجرّأنا ورمَيْنا بعباءاتِ الأمّهاتِ فوقَ جُثثِ المغدورينَ؟!

أوْ ذهبْنا في تحدّي السفاحينَ

وفكّرْنا في موَاراةِ الجثثِ إكراماً لذواتنا!.

آه يا سميرةُ كَمْ نحْنُ جُبناءُ!!!

يا غريبةً لوْ عرفتِ أنّ عربةَ الخبزِ التي كانَ الحسنُ يجرُّها وتجرُّهُ إلى نحرِهِ وذبْحِهِ،

لَمَا أدخلتِ الطحينَ إلى "مُونةِ" العائلةِ ولا فكّرتِ بأنْ يُعيلَ الطفلُ والديهِ.

لكنّكِ حتّى لوْ حدَسْتِ هذا النحسَ،

---

[1] من الأحياء البغدادية التي أفرزت طائفياً بعد عام ٢٠٠٣، وكذلك العامرية والكاظمية والأعظمية.

فالحسنُ المُسالمُ الذي أرادَ أن يُدافعَ عنْ صديقهِ
فغدرته رصاصةٌ لمْ تكنْ طائشةً
والقاتلُ الهلامي لمْ يعرفْ أنَّ ولدَكِ كانَ ابنَ طائفتهِ وهذهِ خسارةٌ في تعدادِ (حكومةِ أغلبيّة)؟!!
خسرَتْ الطائفةُ صوتاً في الانتخاباتِ القادمةِ،
لكنّكِ المفجوعةُ بقَتْلِ الحسنِ
لمْ تتصوّري لحظةً أنَّ الأقدارَ تسيرُ كمَا البرقُ وأنَّ الأشقّاءَ لا يُحبّونَ أن يفرّقَهم الموتُ.
فكانَ نداءُ النَحْسِ أقربَ إلى جرِّ الحسينِ إلى غيابهِ.
لا، لمْ يكنْ يحلمُ ولدُكِ بغيرِ الحفاظ على عربةِ الخبزِ،
كَيْلا تكونَ مائدتُكِ فارغةً مثلَ كلِّ الفقراءِ في بلدِهم الغنيّ.
عربةُ ولدَيكِ عادتْ إليكِ وحيدةً إلاّ منْ رسالةِ السفاحينَ،
التي غيّرتْ هويّةَ القتلةِ ورَمَتْ المغدورَ في حيِّ العدلِ[1]،
والحسن[2] في الكاظميّةِ،
لكيْ تضيعَ ملامحُ السفاحينَ في ميزانِ الطوائفِ و"المكوّنات"[3] سيّئ الصيتِ.

---

١ هو أحد الأحياء البغدادية الذي اكتسب هوية سنيّة بعد عام ٢٠٠٣.

٢ هو أحد أولاد سميرة شقيقة الروائيّة إيمان محمد الذي قتل في حي الشعلة، وهو حي "شيعي"، بعد عام ٢٠٠٣، وحسين ولدها الآخر الذي اختطف في حي "سنّي" ولا يعرف مصيره حتى الآن.

٣ مفردة قسمت العراقيين عرقياً وطائفياً في دستور عام ٢٠٠٥.

وأنتِ الغريبةُ أمسكتِ بهويّةِ الأحوالِ المدنيّةِ وصرخْتِ بوجْهِ السفاحينَ:
لَسْتُ سنّيّةً ولا شيعيّةً
أنا عراقيّةٌ أولاً وأخيراً
قبلَ ألفين وثلاثة وبعدَها
لَمْ تذهبي إلى طابورِ شهداءِ النظامِ السابقِ
ولَمْ تقدّمي طلباً لاستعادةِ حُزنِ الأيّامِ وخوفِها
حينَما انتزَعوا منْ والدَيْكِ عنوةً وجدَّتكِ ولدَها حامدَ الدّليمي[1]
زينَ الشبابِ بتُهمةِ "التآمرِ" على القيادةِ عامَ ١٩٧٩.
"الله خيرُ مَنْ يعوِّضَنا صبْرَ السنواتِ ورعبها"،
هكذا كانتْ تبدأُ صلاتَها أمُّ حامدٍ،
لكنّه سرقَ والدَيْكِ سريعاً بعدما أصبحتُمْ في القَوائمِ السوداءِ للنظامِ،
قُلْتِ العَوَضَ على اللهِ،
ولكنّكِ لَمْ تتوقّعي أنَّ اللهَ سيبقَى صامتاً كلَّ هذهِ السنواتِ
ولا يأخُذ بيدِكِ ويَدُلُّكِ في أسوأ الأحوالِ على والدَيْكِ
حتّى وإن كانا بقايا مِزَقٍ في حُفرةٍ نائيةٍ.
يا سميرةُ لا تستمرّي بالدعاءِ،
فلا عوْدةَ للغائبينَ في أرضِ السَوادِ،

[1] هو أحد السفراء العراقيين الذي أعدم عام ١٩٧٩ بتهمة ما يسمى "مؤامرة عام ١٩٧٩".

سوادُ عينيْكِ غامَ في حسرتِكِ التي ستظلُّ أبديّةً لأنّكِ مثلُ كلِّ أمٍّ،
تموتُ بحرْقةِ موْتِ الولدِ
فكيفَ وأنتِ لا تعرفينَ
أينَ رُفاتُهمْ،
أينَ حُسينُكِ؟
حتّى وإنْ تحوّلَ أملاً،
بعودةِ عربةِ الخبزِ محمّلةً بكفافِ يومِهِم وقُوتِهِمْ
وإن كانَ خبزاً معجوناً بخميرةِ الدّمِ هذهِ وبلعْنةِ الأمّهاتِ.

يا أمَّ أسامة

صَبَرْتِ ثلاثينَ عاماً فانتصرَ الحقُّ في روحِكِ حينما

مكّنَ الله "حزبَ الدعوةِ"[1] من أن يكونَ الحاكمَ في عراقِ المظلومينَ

بعدما كانَ المحكومَ بالموتِ.

أعادَ الله روحَ أبي أسامةَ

أسامة ولدُكِ الوحيدُ الذي رقصَ حَدَّ الإعياءِ

على صوْتِ هلاهلِ أمّهاتٍ وزوجاتٍ وأهالي شُهداءِ حبّكِ الأثيرِ.

قلتِ: لا يهمُّ يا كاظمَ سلّوم[2] إن افتديت عمرَكَ،

فعمرُكَ اليومَ أورقَ في عهدٍ جديدٍ.

عهدٌ لا خوفَ فيهِ منَ الخوفِ،

ولا للسجونِ

ولا للحروبِ ولا لرُعبِنا منْ إقامةِ مجلسِ العزاءِ

---

١ هو أحد الأحزاب المحظورة في عراق صدام وكانت عقوبة الانتماء إليه هي الإعدام، تمكّن أخيراً من الوصول إلى السلطة بعد عام ٢٠٠٣.

٢ هو أحد أعضاء حزب الدعوة الذي حكم بالإعدام عام ١٩٩٩ بجريمة الانتماء لهذا الحزب.

أو الهمسِ بصوتٍ خافتٍ لأخبارِ أهلي بإعدامك،
بعدما وجدوكَ متلبّساً بجرمِ "خيانةِ الوطنِ والقائد"،
وأنتَ توزّعُ منحَ حزبِ الدَعوةِ لأهالي المعدومينَ.
فرِحْتِ ببطاقةِ شهداءِ النظامِ البائد[1]
وهربتِ إلى أسامةَ[2] وحيدِكِ الذي كانَ يشبهُ العشبَ الجميلَ في بلدٍ لا يحتملُ إلاّ العاقول.
أسامةُ هو الآخرُ كبرَ
ولا يعرفُ مِنْ والدِهِ غيرَ ملامحَ تشبهُهُ تعرَّفَ عليها بعدَ ٢٠٠٣،
حين أطلقْتِ سراحَ الصورةِ منْ أسْرِ صندوقِكِ الخشبيِّ،
خوْفاً من اتّهامِكِ بالتستُّرِ على صورةِ "مجرمٍ" في حزبٍ محظورٍ.
مضتْ الأيامُ والسنواتُ
وعِراقُكِ الذي حرصْتِ أن تكُوني أوَّلَ الذاهبينَ إلى ساحةِ الفردوسِ[3]
لمْ تهدأ بِهِ ماكنةُ الموتِ
والسجونُ التي كنتِ متيقّنةً من أنّها ستصبحُ مدينةَ ألعابٍ للأطفالِ،
ومستشفياتٍ حديثةً،

---

١ هي إشارة إلى امتيازات تمنح لعوائل ضحايا شهداء النظام السابق من قبل الحكومة الحالية في العراق.

٢ هو الشهيد الذي اغتالته فرق الموت في بغداد عام ٢٠١٠.

٣ هي الساحة الشهيرة التي أسقط فيها الأمريكان تمثال صدام حسين يوم ٩/٤/٢٠٠٣ معلنين بذلك بداية احتلال العراق وسقوط نظام صدّام .

ومُولاتِ للتسوُّقِ كما هوَ عراقُ الخمسينياتِ،
وأن تجِدي العدلَ في كلِّ زقاقٍ في العراقِ،
ولا تجدي بعدَ اليومِ أمّاً عراقيةً تندبُ حظَّها.
جاءَ الحقُّ يا أمَّ أسامة وذهبَ الباطلُ
ولكنَّ حربَ الطوائفِ التي اخترَعوها لَمْ تَنْطَلِ على أسامة
ولدِكِ البارِّ بأمِّهِ وميراثِ والدِهِ الذي لَمْ يُغادرْ بغدادَ إلى سوريةَ أو إيرانَ خوفاً من جلاّديه
الرحلةُ القسريّةُ الوحيدةُ التي أُجبرَ عليها أبو أسامة هي رحلةُ السجنِ ومِقصلةُ الإعدام.
قالَ أسامةُ: "يا أمّي إنّها ليستْ حربَنا ولنْ أكونَ وقوداً،
كما كانَ والدي الذي صدَّقْتُ كلَّ قصصَكِ بشأنِ سفرِهِ الطويلِ والبعيدِ،
فلا تخافي، لنْ أذهبَ لأكونَ في هذهِ الميليشيا أو تلكَ.
أبي لَمْ يكنْ قاتلاً،
كانَ حالماً بالحريّةِ،
كانَ حاملاً لفكرٍ ظنَّ أنّهُ السبيلُ للإمساكِ بالعدلِ.
لا، لنْ أكونَ ضِمنَ فِرقِ موتٍ،
سأكونُ معكُما أنتِ ومرتضى ولدي،
أعملُ لكيْ تكونَ ثلاجاتُكِ عامرةً بخيرِ العراقِ،
ولتدفُني سنواتِ الجوعِ في مقبرةِ الظالمينَ".

وفجأةً حلمتِ حلماً مقيتاً بلافتاتٍ سوداءَ في كلِّ ركنٍ منْ زوايا منزلِكِ،
الذي ظلَّ فقيراً حتّى بعدما منَحُوكِ شارةَ زوجةِ الشهيدِ.
ونهضتِ مرعوبةً إلى سريرِ ولدِكِ،
نسيتِ أنَّ أسامةَ الصغيرَ كانَ ينامُ هانئاً بينَ زوجتِهِ وولدِهِ الرضيعِ،
اعتذرتِ منهُما،
لكنّهُ الساخرُ منْ كُلِّ شيءٍ إلاّ منْ قلبِكِ،
كانَ يردِّدُ أمامَ أصدقائهِ المشاكسين:
"لا تُصدِّقوا النساءَ،
كلُّهنَّ غادراتٌ وكذّاباتٌ،
إلاّ قلبُها، هيَ وحدَها مَنْ أسجدُ في حضرتِها لأصلّيَ للهِ،
هيَ وحدَها مَنْ أسلّمُها مفاتيحَ قلبي
دونَما خوفٍ بَيْعي لِعصاباتِ العلاسةِ[1] والسفاحينَ،
هيَ هيَ...".
صرخَ أصدقاؤهُ: "مَنْ هِيَ حبيبةُ قلبِكَ؟!
مَنْ هِيَ المرأةُ التي لا تغدُرُ؟
أنتَ تعيشُ في وهمٍ يا أيُّها العاشقُ المخدوعُ؟!!!".

---

١ مفردة انتشر استخدامها بعد عام ٢٠٠٣، تشير إلى العصابات التي تقوم بعمليات الخطف ومقايضة المخطوفين بأموال كبيرة وبيعهم إلى مافيات وفرق الموت ضمن صفقات مالية.

صرخَ يزأرُ كما الليثِ:

"إنّها الأمُّ، قلبُ الأمِّ هوَ التوراةُ والإنجيلُ والقرآنُ"

حينما عادَ يوماً ليخبرَكِ أنّهُ يحملُ سرّاً يؤرِّقُهُ،

فقدْ وصلَ إلى أولى حلقاتِ الموتِ عامَ ٢٠٠٥

وأن بنايةَ وزارةِ الإعلامِ سابقاً، مجلسِ محافظةِ بغدادَ حالياً،

هيَ فمُ وحشٍ يُطْلَقُ مِنْها على مدارِ الساعاتِ المنتقاةِ للانتقامِ

هاوناتٍ زاعمينَ أنّها ترجُمُ المحتلّينَ والعملاءَ في المنطقةِ الخضراءِ[1]

لكنّها في كلِّ مرّةٍ تطيحُ بأولادِ الفقراءِ وبناتِهم في الصالحيةِ أو علاوي الحلّةِ

وأنهُ لنْ يسكتَ،

فهَذي جريمةٌ وهؤلاءِ إرهابيّون حتّى وإن كانَ الشعارُ قتالُ الكفّارِ،

وكانَ يسخرُ: أيُّ كفّارٍ؟!!!

لَوْلا "الكفّارُ" ما كانَ للتمثالِ[2] أنْ ينحَني أو يسقطَ حتّى ولوْ بعدَ ألفِ سنةٍ،

هلْ نسيتِ يا أمّي كيفَ كانَ قاتلُ[3] أبي يتحدّى القاضي في المحكمةِ؟

---

١ هي المنطقة التي تتمثل في حي كرادة مريم ببغداد حيث مقر القوات الأمريكية والسفارات والحكومة العراقية حالياً.

٢ تمثال صدام حسين في ساحة الفردوس.

٣ هي إشارة إلى صدام حسين.

"والله لا أنتَ ولا أبوكَ جان يكدر يجيبني هنا لو ما الأمريكان"[1]

كنتِ مرعوبةً وأنتِ للمرّةِ الأولى تتوسّلينَ به،

وهوَ للمرةِ الأولى لا يُصغي إلى قلبِكِ الذي لا يريدُ أن يعيشَ مأساةَ الفقداناتِ مرّةً أخرى،

ولكنّهُ قبلَ أن يكملَ طريقَهُ إلى مركزِ الشرطةِ القريبِ منْ حَيِّ الإعلام[2]

ابتلعتْهُ سيّارةٌ رسميّةٌ لترميه متَّهَماً في مركزِ شرطةِ الصالحيةِ لعامينِ.

عامانِ اثنانِ وأسامةُ ابنُ الشهيدِ متّهمٌ بماذا؟

مُتَّهمٌ بالتزويرِ،

مُتَّهمٌ بالكذبِ،

مُتَّهمٌ بِلا تهمةٍ محدّدةٍ ولكنّه مُتَّهمٌ غيرُ بريءٍ حتّى تثبُتَ إدانتُهُ.

عامانِ اثنانِ قبلَ إطلاقِ سراحه الذي كلَّفكَ الكثيرَ

فالمحامونَ تحوَّلوا إلى نخّاسينَ

يقفونَ أمامَ طوابيرِ الأمّهاتِ المفجوعاتِ بحبْسِ أولادِهنَّ الأبرياءِ والمجرمينَ

لا يهمّهمْ سوَى مَنْ يدفعُ أولاً

ولنْ يرْضوا بدولاراتِكِ القليلةِ الشحيحةِ التي جمعتِها لعازةِ الأيّامِ،

---

١ هذه عبارة صدام حسين للقاضي العراقي حينما كان في قفص اتهام المحكمة الجنائية العليا التي أنشأها الحاكم المدني للعراق.

٢ أحد أحياء بغداد حيث كان يسكن الشهيد أسامة.

مِنْ رواتبِ الشهداءِ بعدما مَنَّ اللهُ عليكِ بعودةِ الحزبِ المحكومِ،
ليكونَ حاكماً ويردَّ المظالمَ عنْ أعضائه المناضلينَ.
لكنَّ المحامينَ في العراقِ قد بدّلوا جلودَهمْ،
عادوا أشدَّ بأساً وشابَهوا تجارَ الحصارِ[3] في زمنِ صدّام.
تذكُرينهُم يا أمَّ أسامةَ بالتأكيد
كيفَ والحكومةُ الظالمةُ وقتَها كانتْ أشدَّ حرصاً على أن لا يكونَ
الطحينُ ملوّثاً بنشارَةِ الخشبِ،
وكانّ التجارُ يخترعونَ ويبتكِرونَ كلَّ وسائلِ الغشِّ منْ أجلِ
دولارات سحتٍ حرام،
الشبيهةِ بطلقاتٍ في بطونِ الأمّهاتِ والأطفالِ الجائعينَ.
المحامونَ سلبوكِ كلَّ مَا جمعتِ لهذهِ الأيّامِ السوداء،
وكادَ اللهُ أنْ يمحقَهُمْ حينما أطلقَ سراحَهُ فجأةً دونَما إنذارٍ،
مثلَما حُبسَ عامينِ هكذا من دون سابقِ إنذارٍ،
فقطْ لأنّهُ حَلُمَ بالإمساكِ بالهلاميين
الظلاميين.
الولدُ سرُّ أبيه.
وأسامةُ حُرٌّ إلاّ منْ هذا الموتِ.
حُرٌّ يعملُ في سباقِ الانتخاباتِ، كسبَ مقاولةَ الموتِ.

---

[3] الحصار الذي فرضته أمريكا على العراق منْ عام ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٣، والذي انتعشت فيه طبقة جديدة من تجار الحروب، تجار الحصار.

آه لوْ أنّهُ عرفَ
أنّها المقاولةُ الأولى وستكونُ الأخيرةَ في سباقٍ انتخابيّ
لا يعرفُ غيرَ شهوَةَ الكرسيِّ والعمولاتِ
أما الخاسرونَ فلا بُدَّ أنْ يتحوَّلوا منْ معارضةٍ إلى سفّاحينَ،
والفائزونَ الذين سيتحوّلونَ إلى لصوصٍ يتفوّقونَ على جدِّهِم
"علي بابا"[1].
كيفَ لا، وهُمْ سَنُّوا سنّةً حسنةً في بلادِ الرافدينِ:
حَوَاسِمُ، كلُّ ما عليها الآنَ حَوَاسِمُ،
حَوَاسِمُ منْ أمامِكَ
وحَوَاسِمُ منْ خلفِكَ،
فأينَ ستهربُ يا أسامةُ بالذي لم يدرِ بِبَالِ أمِّكَ،
أنّها ستكونُ أمَّ الشهيدِ المغدورِ،
في زمنٍ لقمةِ حرامٍ منْ مائدةِ العراقِ الجديدِ؟!!

١ كنية استخدمها الأمريكان بعد عام ٢٠٠٣ للإشارة إلى الشعب العراقي كناهب وسالب لماله وبلده.

أمُّ صلاح، خنساءُ العراق آنذاك

خرجَ المسؤولُ الحكوميُّ وهوَ يصرِّح لـ"CNN" قائلاً:

"أنْ يرقصَ العراقيونَ فوْقَ جثثِ قتلاهِمْ هوَ موروثٌ عراقيٌّ طاعنٌ في القِدَمِ

فلِماذا تستاؤونَ وتندهشونَ؟!!!".

وأنتِ أيضاً يا أمَّ صلاح لماذا تندهشينَ،

حينما أوتْكِ جارتُكِ الكرديّةُ

التي لا يعرفُ قلبَها مكاناً للتشفّي أو الثأرِ،

حتى وإن كانَ زوجُكِ الرفيقُ الحزبيُّ

جاثماً فوقَ صدورِ أبنائِها الباحثينَ عنْ هويّةٍ لا تشنقهُمْ بفكرٍ شوفينيٍّ.

هربتْ منَ البيتِ بعدما هَبَّ ثُوّارُ البيشمركةِ[1] إلى مقرّاتِ الحزبِ[2]،

ومنْ سُوءِ طالعِ الأمِّ، أمِّ الولَدَيْنِ والفتاتَيْنِ،

---

[1] المقاتلون الأكراد.

[2] مقرات حزب البعث عام ١٩٩١.

أنّ صلاحَ البكر أصرَّ ألاّ يترك والدَهُ في مهمّته الأخيرةِ،
بالدفاعِ عنْ والدِهِ وليسَ للدفاعِ عن نظامٍ ينهارُ.
ارتعبتْ منْ أنْ تطالَ الانتقاماتُ الشرفَ،
والشرفُ في العراقِ لا يخرجُ عنْ حدودِ فَرْجِ المرأةِ لا غير.
هربتْ أمُّ صلاح وبناتُها إلى جيرانِها الأكرادِ،
كانَ معهُمْ ولدُها الصغيرُ الذي احتضرَ منْ نزيفِ الرَصاصِ،
غيرَ مصدِّقٍ بسقوطِ النظامِ وانتفاضةِ[1] شعبٍ سرَتْ مثلَ اللَّهبِ،
في حطبِ البصرةِ وطارتْ على عجلٍ، لتحُطَّ في السليمانيّة.
فاقتْ سرعتُها وصولَ الإيميلاتِ وشتائمِ الفيسبوكِ هذهِ الأيّام.
الأمُّ الكرديّةُ كانتْ تغنّي بلغةٍ آريّةٍ لا تفهمُها أمُّ صلاح،
لكنَّ ابنتَها الخائفةَ منْ حفلةِ اغتصابٍ قادمة
صارتْ المترجمَ الوسيطَ بينَ أمِّها وأمِّ بَرْوينَ
المنشغلةِ بالغناءِ والتي أسرعتْ إلى المقاتلينَ
لشدِّ أزرِهِمْ لكنَّها قبلَ ذلكَ أحضرَتْ لجارتها مشرطاً وديتولاً وقطناً،
لكيْ تبدأَ عملَها الجِراحيَّ في خلاصِ ولدِها الصغيرِ منْ غزوةِ رصاصٍ
لمْ يفسِّرْ للطفلِ مَا يحدثُ الآنَ.
لماذا هُمْ هاربونَ؟

---

١ إشارة إلى انتفاضة عام ١٩٩١.

بعدما كانَ أهلُهُ يحملونَهُ ويسيرونَ على الأرضِ مَرِحينَ غيرَ خائفينَ منَ الأكرادِ؟!

وبينَ لحظةِ خروجِ الطلقةِ منْ جسدِ الطفلِ،

خرجَ المنتفضونَ بأجسادِ فرائسِهمْ،

وَوَضعوها قبالةَ أبوابِ الضحايا وكانتْ أمُّ صلاح (دخيلةً) لدَى جارتِها،

وكلُّ عراقيٍّ أصيلٍ يفهمُ بالغريزةِ معنَى الدخيلِ[1]

أجسادُهمْ ممدَّدةٌ ممزَّقةٌ وبينَ عينَيْ أمِّ صلاح الكاتمةِ لمصيبَتِها،

بينَ خرسِها... الذي ابتلعَهُ الرعبُ.

أن تكونَ ابنتُها ضحيةَ عُرْسِ الدَمِ.

المصيبةُ أنَّ الثوراتِ لا تولدُ في بلدانِنا إلاّ بالدَّمِ،

وبهزيمةِ قلوبِ الأمهاتِ.

المنتفضونَ يتنافسونَ بالحصولِ على شرفِ الرقصِ فوقَ الأجسادِ،

وصلاحُ البكر لا يقوَى على أن يصرخَ بأمِّهِ

التي انفصلَ جسدُها بين يديْها التي تريدُ وقفَ نزيفِ صغيرِها الآخر

وبينَ عينَيْها التي أخْرَسَتْها قسوةُ الخصومِ.

---

١ هو من يستجير في حالة خوف من خطر قادم بأناس آخرين لكي يضمنوا أمنه وسلامته، وهذا العرف عشائري لا يسمح بتسليم من استجار بغيره إلى أية جهة، وإن فعل ذلك فهذا عار يلاحقه أبد الدهر.

إنّهمْ يرقصونَ فوقَ جثثِ الموتَى،
لا رحمةَ،
لا حرمةَ للقاتلِ أو مَنْ تستَّرَ على شحذِ آلاتِ التعذيبِ،
وانتزاعِ الاعترافاتِ منَ المعارضينَ أو الراغبينَ بدولتهِمْ القادمةِ[1]
فلماذا تتعجَّبينَ؟!!
إنّهُ موروثٌ وهُمْ يعبِّرونَ عنْ اعتزازِهِمْ لا غيرَ،
بهذا التاريخِ المليءِ بشهواتِ وتشوُّهاتِ السلطةِ، وأيضاً لا غير،
لا غَيْرَ غَيْرُ هذهِ السُّلطةِ منْ ملوكِ أوروك حتّى ملوكِ الطوائفِ.
كلُّ الأمّهاتِ يكرهْنَ الحربَ،
حتّى الخنساءُ حينَما أورثَها حزنُ قتلِ أخيها صخر
فهيَ تسخرُ منَ الذين تصوَّروا أنّها لا تُبالي بالغيابِ.
هكذا كانَ "وسامُ الشجاعةِ" والصبرِ بتسميتِكِ "خنساءُ العراقِ"
آنذاك،
غيرَ معنيّةٍ أنتِ بهِ.
كانَ وساماً لفمِ السُّلطةِ كيْ تخيفَ بهِ المنتفضينَ،
صارخاً: "أنا باقٍ بوَقودِ أبنائِكُمْ سواءٌ أكانوا في ضفّتي أم في الجرفِ
المعارضِ،
فالنهرُ في نهايةِ الأمرِ كلُّهُ لِي،
والبلدُ كلُّه مُلْكِي،

[1] إشارة إلى الدولة الكردية القادمة.

وأنتِ أيضاً... أنتِ أيّتُها الأمُّ،
عليكِ أنْ تعبِّري عن امتنانكِ بلقبِ الخنساءِ،
وعليكِ نسيانَ لحظةِ الرقصِ على جثثِ المنهزمينَ".
بعدَ أشهرٍ عديدةٍ منْ كوابيسِ منحكِ الوسامَ،
عثرتِ على ولدِكِ في مقبرةِ ديالى الجماعيّة[1].
قلبُكِ استدلَّ على ولدِكِ ووشمِ الوحامِ في ساقِهِ،
بعدما سرقَ مشهدُ الرقصِ على جثثِ الموْتى ضياءَ عينيْكِ،
وإلى الأبدِ.

1 مقبرة قرب محافظة ديالى دفن فيها جميع من قتل من قبل المنتفضين في كردستان العراق عام ١٩٩١ من بعثيين وغيرهم ممن اشتبه بانتمائهم للبعث أو السلطة آنذاك وتعذيبهم للمعارضين الأكراد، وقد عثرت الحكومة العراقية على تلك المقبرة الجماعية بعد أشهر من استرداد المدن التي سيطر عليها الثوار.

يا أمَّ جواد الأسدي[1]

كنتِ لا تريدينَ رؤية أيِّ كيسٍ للطحينِ،
"كونية"[2] كما يُسمِّيه العراقيونَ
الهستيريا التي لمْ يفهمْها أطباؤكِ النفسانيّون ولا غيرُهُمْ،
حينما يعْلو صراخُكِ وأنتِ تُشيرينَ بإصبعكِ إلى كيسِ الطحينِ.
كانَ الأطبّاءُ يتصوَّرونَ أنَّ الطحينَ الأسودَ الملوَّثَ بسُمِّ الحِصارِ
هوَ ما يُرعبُكِ،
يتصوَّرونَ أنَّ تسمُّمَ المعِدةِ الذي رافقَكِ منذُ إعدامِ ولدِكِ هوَ
السببُ يا أمَّ جواد.
لقدْ كانَ همُّكِ واحداً قبلَ كيسِ الطحينِ ودمِهِ الأسود،
وخوْفُكِ منْ تقارير[3] الجيرانِ حوْلَ ولدِكِ الشيوعيِّ المنفيِّ في

١ جواد الأسدي: مخرج عراقي معروف، غادر بلده أوائل السبعينيات إلى منفاه الشامي و لم يعد إلى بغداد إلا بعد عام ٢٠٠٣.

٢ مفردة باللهجة العراقية تعبّر عن كيس كبير.

٣ إشارة إلى تقارير كانت ترفع من قبل مخبرين إلى السلطات الأمنية في زمن صدام واستمرت في عراق اليوم تحت تسمية جديدة "المخبر السري".

بلادِ الشام،
كانتْ إجابتُكِ للّذينَ يسألونَ: "لا أعرفُ واللهِ أيَّ شيءٍ عنهُ،
وأقسمُ لكُمْ بالحُسينِ وبالعباسِ وأمِّ البنينِ"
جارك همسَ لقلبكِ:
"أقسمي بحياةِ القائدِ أنّكِ لا تعرفينَ مكانَهُ
ولا أخبارَهُ التي بدأتْ تفوحُ بأعمالهِ الخائنةِ للوطنِ"
تتقيّئينَ، وغالباً متعمّدةً، في وجوهِ مَنْ يحقّقونَ معكِ،
بشأنِ الذي كنتِ تريدينَهُ أنْ يبقى خارجَ حدودِ الخوفِ.
ما أقساهُمْ يا جوادُ! ألَمْ يعرفوا ما معْنى أن تكونَ الأمُّ أمّاً في قاموسِ الحياةِ؟!!
وتسخرينَ منْ أطبّاء لا يؤمنونَ بغيرِ علومِ الأحياءِ والبيولوجيا أو النفسانيّين
الذين لَمْ يجِدوا غيرَ الطحينِ الفاسدِ كيْ يفسّروا ظاهرةَ رعبِكِ منْ أكياسِ الطحينِ.
لوْ أخبرتُكَ يا جوادُ كيفَ كانوا مثلَ الغربانِ الخائفةِ منْ انتقام قنّاصيها،
كيفَ رَمَوْا بكيسِ الطحينِ المشؤومِ على عجلٍ قبالةَ بابِ الدارِ،
خائفون من التهامِ الأمّ لهُمْ، الأمُّ المفجوعةِ بولدٍ اختفى دَهراً،
ولَمْ يعُدْ غيرَ كومةِ لجسدٍ ممزَّقٍ في كيسِ طحينٍ فارغٍ
لكنَّهُ مملوءٌ بجثةِ أخيكَ.

ملجأ العامرية[1] ... أم بيداء[2] ... كان يا ما كان

الأطفالُ

الشبابُ

الضحايا

باختلافِ توقيتِ الموتِ

يتأرجحونَ بينَ قلوبِ أمّهاتهم

وشعاراتِ القابضينَ على عُنقِ البلادِ

والماسكين بها من حدائقِها الخلفيّة

---

١ ملجأ العامرية أو الفردوس أو رقم خمسة وعشرين هو ملجأ تعرض للقصف الجوي الأمريكي بحي العامرية، بغداد، العراق، أثناء حرب الخليج الثانية. فقد أدت إحدى الغارات الأميركية يوم ١٣ فبراير ١٩٩١ على بغداد بواسطة طائرتين من نوع أف-١٧ إلى تدمير الملجأ مما أدى إلى مقتل أكثر من ٤٠٠ مدني عراقي من نساء وأطفال. وقد برّرت قوات التحالف هذا القصف آنذاك بأنه كان يستهدف مراكز قيادية عراقية، لكن أثبتت الأحداث أن تدمير الملجأ كان متعمداً، خاصةً وأن الطائرات الأميركية ظلّت تحوم فوقه لمدة يومين.

٢ أم عراقية فقدت وحيدتها بيداء وجميع أسرتها في مجزرة قصف الملجأ وقررت بعد ذلك أن تكون حارسة أرواح الشهداء هناك.

أم بيداء كانَ حظُّها النحسُ قبلَ ٢٠٠٣ يشابهُ نحسَ سميرة في عُرسِ ملوكِ الطوائفِ عامَ ٢٠٠٤

قبلَ ساعاتٍ منْ بدءِ غاراتِ الحممِ

وغربانِ طائرات ١٧–F

ظنَّ سُكانُ العامريّةِ أنَّ هذا الملجأَ الذريَّ عاصِمَهُمْ لا محالةَ منَ الموتِ العبثيّ

وأنّهمْ أكثرُ سكّانِ العاصمة حظّاً

حينما سمحَتْ لهُمْ القيادةُ بالهروبِ والاختلاءِ بأقدارِهِم هناكَ

أم بيداء لوْلا رجاءُ جارتِها الحاملِ بوليدٍ سيسَجَّلُ ضمنَ تعدادِ السكّانِ لأطفالِ الحصارِ

لّما فكّرتْ بالعودةِ للبيتِ

كانتْ تشعرُ بالبرد

والبطانياتُ لمْ تعُدْ تكفي الجارةَ وكأنّها كانتْ تحْدُسُ

أنَّ عليها أنْ تغوصَ في القماشِ كيْ لا تمزّقَ وليدَها حِممُ الملجأ فيما بعْدُ.

ذهبتْ أمُّ بيداء مُخبرةً وحيدتَها أنّها ستعودُ في دقائقَ

لتحمِيَ جارتَها منْ عصفِ الولادةِ القادمِ

ومِنْ بردِ المكان

بيداءُ الطفلةُ بنتُ الثماني سنواتٍ أمسكَتْ بعباءَةِ الأمِّ متوسِّلةً اياها بعَدمِ الذهابِ

فقلبُ الأطفالِ مفتاحُ براءةِ الناطقينَ بالغيبِ
بكَتْ بيداءُ والأمُّ ترميها إلى الانتظارِ
"ماهِيَ إلاَ دقائقُ وأركضُ عائدةً إليكِ
خُذي هذهِ اللعبةَ التي طالما لَمْ تُفارقْكِ
احضنيها بقوَّةٍ حتّى أعودَ"
غابتْ الأمُّ ثوانيَ وإذا بعاصفةٍ لَمْ تشْهدْهَا حياتُها منْ قَبْلُ
عاصفةٍ تخنقُها بدخاناتٍ وسحبِ عباءتِها
ترتطمُ بجدارِ الملجأ والنارُ ترفسُ أمَّ بيداء
لتبعدَها عنِ الموتِ
وهيَ تصرخُ غيرَ مصدِّقة
أنّ الأقدارَ سريعةٌ أسرعُ منْ زفيرٍ لَمْ يكدْ يشهقُ بالرئةِ حتّى انتهى كلُّ
شَيءٍ
أمُّ بيداء
لا تصدِّقُ
وتسخرُ
وتصرخُ بالصحفيينَ الذينَ كانتْ السلطاتُ بأمَسِّ الحاجةِ إليهِمْ،
لكيْ تكسبَ جولةَ التعاطفِ العالميِّ
حتّى وإن ظلّتْ الأمُّ تصرخُ وتبصقُ بوجهِ الصحفيِّ الغربيِّ
تصرخُ:
"تريدونَنا أنْ نموتَ أكثرَ،

لتكتبوا أكثرَ،

ابتعدوا... بيداءُ هناكَ

وأنتمْ تقفونَ بينَ حبلِ النجاةِ

والحرائقُ لا تقبلُ الانتظارَ فهيَ تأكلُ الأطفالَ دونَ رحمةٍ".

الحرائقُ لمْ تصدّقْ

هذا اللحمُ البشريُّ الطازجُ في رَحى حربٍ ضروسٍ ليسَ فيها تكافؤٌ بينَ المتحاربينَ.

هجرتْ أمُّ بيداءَ منزلَها الذي ظلَّ خاوياً إلاّ من البطانيّاتِ التي انتظرتْهَا المرأةُ الحاملُ؛

تلكَ التي تحوَّلتْ إلى رقمْ في سجلٍّ ضحايا ملجأ العامريّةِ

الأمُّ أصبحتْ سادنةً للمكانِ

المكانُ كلُّ شيءٍ فيهِ يشيرُ إلى بيداءَ

نحنُ هنا... كان يا ما كان... يا أمُّ بيداءَ مَرّ الزمانُ

وأرواحُ العراقيينَ الذينَ لمْ تعتذرْ أمريكا لهمْ

حتّى بعدما وضعنا إكليلَ الزهورِ[1] فوقَ نصبِ قتلةِ أبنائنا

حتّى بعدما جرحتْ ضمائرُ مئاتِ الألوفِ منَ الضحايا الذينَ لمْ يتركوا بلدَهُمْ.

و لمْ يعرفوا أيَّ قدرٍ جاءَ بالمارينزِ إلى أرضِهمْ

---

١ إشارة إلى قادة العراق الجديد الذين وضعوا أكاليل الزهور على نصب الجندي المجهول الأمريكي أثناء زياراتهم الرسمية إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

ولماذا يموتونَ ويستمرُّونَ بالموتِ
والحكومةُ بدلَ أن تطالبَهمْ بالاعتذارِ منَّا
تضعُ أكاليلَ غارٍ على جنديِّهم المجهولِ
وتصفُ أبناءَها بالإرهابيينَ وتشكِّلُ قواتٍ مشتركةٍ معهُمْ للفتكِ بنَا!!
كما حدثَ في الفلوجةِ[١] والزركةِ[٢] وبهرزٍ[٣] وحديثةِ[٤] والنجفِ[٥] والحويجة[٦]
أصبحَ الملجأُ ذاكرةً
لا يهمُّ إنْ أرادَها النظامُ السابقُ كـ"بروباغندا" ضدَّ قواتِ الائتلافِ

---

١ الفلوجة: إحدى مدن العراق التي عُرفت بمقاومتها الشرسة للاحتلال الأمريكي، وقد حاصرها الأمريكان وضربوها بأسلحة الفوسفور الأبيض المحرمة دولياً.

٢ الزركة: إحدى مدن العراق التي قيل بتحصن أحد القيادات الشيعية الذي ادعى أنه المهدي المنتظر حيث حاصره الجيش العراقي وأفرطت الحكومة العراقية في استخدامها للقوة وكادت أن تبيد القرية عام ٢٠٠٧، حتى إن جثث القتلى لم تدفن إلا بعد أن أصدر السيد السيستاني فتوى بحرمة الموتى وإكرام دفنهم.

٣ إحدى المناطق في محافظة ديالى العراقية، شهدت وحشية القوات الأمريكية بقتل أبنائها.

٤ إحدى المحافظات العراقية التي شهدت المجزرة التي قامت بها القوات الأمريكية وتمثلت بقتل أبناء المدينة المحتفلين بعرس أحد أبنائها.

٥ إحدى مدن العراق شهدت قصف القوات العراقية والأمريكية معاً عام ٢٠٠٥ لإخراج جيش المهدي منها الذي كان يسيطر على المدينة.

٦ قضاء تابع لمحافظة كركوك العراقية، تعرضت ساحات الاعتصام السلمي فيها في شهر نيسان من هذا العام إلى استخدام القوة من قبل الجيش العراقي وقوات سوات مما أدّى إلى استشهاد وجرح عدد من المتظاهرين.

لكنَّ الأهالي والضحايا والجدرانِ

التي تبحثُ فيها أمُّ بيداءَ عنْ كفٍّ ابنتِها التي تناثرتْ هِيَ والأربع مئة قتيلٍ

غيرَ مصدّقةٍ أنّ الإسمنتَ يمكنُ أن يكونَ حاضناً لأجسادِ هؤلاءِ

الذينَ ذوَّبَهمْ جهنمُ مقاتلات ١٧-F

التي يكرهُها الأكرادُ

وأكرهها أنا أيضاً

وتكرهُها أمُّ بيداء

التي طُردتْ منْ ملجئها الذي أصبحَ بيتَها طوالَ أربعة عشر عاماً

حتّى سرقَتْهُ شعاراتُ مقاومةِ الغُزاة

المسلّحونُ والأحزابُ الذينَ دنَّسوا واغتصبوا الملجأ

وأهانوا الشهداءَ بمليشياتهم.

شهداءُ ملجأ العامريّةِ لمْ يفلتوا منْ تناسلِ الفوضى

الشهداءُ يصرخونَ

أصواتُهمْ هيِ صدىً يقلقُ كلَّ مَنْ يتصارعُ على كرسيِّ العراقِ

وأمُّ بيداء تلكَ المرأةُ التي لمْ تكنْ حياتُها غيرَ غارِ الملجأ

تجدُ نفسَها اليومَ هناكَ في حفرةٍ كيْ لا تتلوّثَ بهويّةٍ طائفيّةٍ

ترقبُ القرآنَ، فهل سيحمي

روحَ بيداءَ ومَنْ معهَا

مِنَ النسيانِ؟

مِنْ سجلِّ ذاكرةِ شهداءِ العراقِ

بمرسومٍ وزاريٍّ.

أو بصفقةِ الأحزابِ وهيَ تتخاصمُ على ملجأ
حتّى وإنْ كانتْ جدرانُهُ تصرخُ بلحْمٍ بشري
تسوقُهُ الميليشياتُ إلى مزبلةِ التاريخِ
لأنَّ حظَّ هؤلاءِ العاقرِ
أنّهم قُتلوا على يدِ طائراتِ F-١٧[١] التي تزيِّنُ سماءَنا منْ جديد
وتلعنُ ضحايا المَلجأ وكلَّ مَنْ يعكِّرُ صفوَ العلاقاتِ العراقيةِ
الأمريكية
في هذا الزمانِ
يا أمَّ بيداء
كان يا ما كان...

---

١ إشارة إلى صفقة أسلحة الطائرات الجديدة بين أمريكا والعراق بعد عام ٢٠٠٣.

جاءَ نصرُ الأمّهات...

لَمْ نعُدْ نمثّلُ العراقَ... العراقَ

هويّاتُنا يقطّعها الجزّارُ في مسلخهِ بينَ طرائدِ

"سكينِ أبي طبر"[1] تتلوّى الهوياتُ وتنزفُ

صابئيةٌ

يهوديةٌ

مسيحيةٌ

سنيّةٌ

شيعيةٌ

كرديةٌ

تركمانيةٌ

أيزيديةٌ

شبكيةٌ... ووو

صدقتْ نبوءةُ موتِ ابنِكِ أيّتُها الأمُّ

---

١ إشارة إلى سفاح بغداد في أيام السبعينيات.

هلْ يمكنُ لأيِّ أمٍّ في العالمِ أن تبادلَ موتَ جمّارِ قلبِها
بفوزِ فريقٍ في مباراةِ كرةِ قدمٍ لا غيرَ؟!
إلاّ أنتِ أيّتها الأمُّ حينما عرفتِ أنَّ وحيدَكِ
الذي غيّبتهُ الانفجاراتُ
حينما أغاظَ فوزُ الفريقِ العراقيِّ على كوريا[1] سفّاحي تجّارِ الدّمِ الجُدُدِ في بلدِكِ
وأسرعوا بتوجيهِ سُمومِهم القاتلةِ في المقهى البغداديِّ
راحَ الشبابُ المحتفلونَ بدلَ العودةِ كمَا خطّطوا في الشوارعِ مُنتشينَ بانتصارِ الحياةِ
عادوا أشلاءَ متناثرينَ تناقلتْ الأخبارُ سرياليةِ موتِهمْ
الفريقُ العراقيُّ هناكَ الذي ضربَهُ زلزالُ خبرِ الانفجارِ
شعرَ كأنّهُ شريكُ القاتلِ بضميرٍ مثقوبٍ
لكنّكِ أيّتُها الأمُّ ضربتِ كلَّ معادلاتِ الحزنِ وانتصرتِ للعراقِ
لم تَخُوني أمومَتَكِ،
فأمومةُ البلادِ هيَ أكبرُ منْ كلِّ أمومة أولادنا
وتوجّهْتِ مثلَ أيّةِ خنساء لا لِتَرْثي ولدَكِ وأصحابَهُ
بلْ لتُبلّغي كلَّ لاعبٍ في مباراةِ الكأسِ الختاميّةِ
"لا غفرانَ لكُمْ إذا لمْ تُجبِروا قلوبَ الأمهاتِ بالنصرِ،

[1] إشارة إلى بطولة كأس شباب آسيا عام ٢٠٠٧ التي انتهت بفوز الفريق العراقي وحصوله على الكأس بعد أن هزم الفريق السعودي في المبارة النهائية.

الكأسُ وعلمُ العراقِ أريدُهما أن يُرَفرِفا في سماءِ ملاعبِ العالَمِ"

فعادَ اللاعبونَ يلعبونَ وكأنَّ المباراةَ ساحةَ حربٍ

بينَ بلدٍ شقيقٍ[1] مشكوكٍ في أمرِ اشتراكِهِ في دَمِنا المسفوحِ

وبينَ كأسٍ يجبُ أن يقطفَها فقراءُ العراقِ لا غيرَ

عراقُ الذينَ تُرِكُوا في المنطقةِ الحمراءِ

بلا سيّاراتٍ مدرَّعةٍ ولا حماياتٍ إلاّ دعواتُهم لربِّهم بالنجاةِ

اللاعبونَ كانوا يصيحونَ: "لا لنْ نَخذُلَكُمْ، لنْ نخذلهنَّ،

سنعودُ أيُّها الشهداءُ إلى أمّهاتكُمْ بالكأسِ وعراقٍ واحدٍ يعبقُ

برائحةِ النصرِ على قتَلَته"،

تحوَّلَ اللاعبونَ إلى أُسودٍ تزأرُ ببعضِها وبخصْمِها

لا عاصمَ لنا منْ عزاءِ الأمّهاتِ والعراقِ إلاّ الكأسُ

كلّما وَهَنَ أحدُهمْ صاحَ بِهِ الآخَرُ

احذرْ! إنّها دعوةُ الأمِّ

الأمُّ

هيَ اللهُ والأنبياءُ والأئمةُ

ولنْ نخذلَ العراقَ حتّى ولوْ قتلْنا أرواحَنا

وجاءَ نصرُ الأمّهاتِ وفتحُ العراقيينَ المُبينُ ليمحقَ الطائفيّةِ

نَسَوْا أيَّ انتماءٍ

مزّقوا شعاراتِ التقسيمِ في شوارعِ العراقِ

---

١ إشارة إلى المباراة النهائية بين الفريق السعودي والفريق العراقي.

حتّى ضاقتْ جدرانُ بغدادَ بالمحتفلينَ الذينَ حطّموا أسطورةَ الإسمنتِ[1] والخوفِ

وصاحَ الجميعُ: الأمّهاتُ هُنَّ مَنْ جلَبْنَ الفوزَ

وأنتِ رغمَ بُكائكِ

بقيتِ في باحةِ الدارِ ترفعينَ يديْكِ للهِ أنْ لا يخذُلَ أيّةَ أمٍّ في هذهِ الليلةِ

الدعاءُ فتحَ لكِ كوّةً من ضياءٍ

فإذا بالشهداءِ جميعِهِم وأوَّلُهم ولدُكِ يتقدّمونَ طوابيرَ المحتفلين

وأنْتِ مزهوَّةٌ بأنّ الأمّهاتِ الوحيداتِ هُنَّ مَنْ استعذْنَ هذا الوطنَ هذهِ الليلةِ.

---

١ إشارة إلى الجدران الكونكريتية العازلة التي مثلت التقسيم الطائفي لمدينة بغداد.

يا أمَّ أطوار[1]

المشهدُ قاتلٌ

ومرعبٌ

ومميتٌ

والعربيةُ[2] تريدُ أنْ تسجِّلَ سبقاً لها بالتقاطِ صُوَرِكِ أيّتُها الأمُّ

وأنتِ تنوحينَ على فقيدةِ الحقيقةِ

أعرفُ أنْ لا قلبَ لماكنةِ الإعلامِ

ولا قلبَ للسفاحينَ

ولا قلبَ للذي تجرّأ

وشوّهَ أجملَ وجهٍ للأميرةِ الطالعةِ منْ خُضرةٍ وحضرةٍ "سُرَّ مَنْ رآها"

---

١ الشهيدة أطوار بهجت هي صحفية شابة قُتلت أثناء فترة الاحتراب الطائفي في العراق عام ٢٠٠٦ حينما حاولت أن تبث تقريراً إخبارياً حول قصة تفجير قبة الإمامين العسكريين في سامراء – العراق. برحيلها فقد العالم حقيقة من نفذ هذا العمل الإجرامي الذي أشعل الفتنة الطائفية بين العراقيين.

٢ قناة العربية: هي القناة الإخبارية التي كانت تعمل بها الشهيدة الإعلامية أطوار بهجت.

أمُّ أطوار

قدرُكِ أنّكِ أيضاً لا تشبهينَ أحزانَ الأمّهاتِ

فموْتُ أطوار تمازجَ بينَ قلبِكِ المذبوحِ بسفكِ دمِ ابنتكِ

وبينَ سرِّ القابضينَ على حقيقةِ ما جَرى هناكَ

لا أحدَ منْ هؤلاءِ يريدُنا أنْ نعرفَ

مَنْ دَلَّهُمْ على عروسِ بيتِكِ؟

غيرَ مصدِّقةٍ

وأنتِ تتابعينَ صدمةَ العالَمِ بقتلِ أطوار

ساعاتٌ بعدَ وصولِها هناكَ ومعرفَتِها لغزَ المهديّ[1]

... سيناريو هدمِ العراقِ كلِّه

تمكّنوا منْها

فأمسكوا بإخراجِ الفيلمِ الذي لا يُريدونَ لهُ نهايةً سريعةً

خبّأوه في جرّارةِ الأكاذيبِ

أرادوهُ طويلاً

مثلَ سنواتِ الحروبِ العاهراتِ

ليفرخ بالموتِ

وهَا هيَ أطوارُ التي تجرّأتْ علَى وقفِ ماكنةِ فَرْمِ العراقيينَ

---

١ إشارة إلى تفجير قبة الإمامين العسكريين في مدينة سامراء التي كانت الانطلاقة الحقيقية لإشعال حرب الطوائف في العراق. ظل أمر هذا التفجير ومن يقف وراءه غامضاً حتى قامت رواية الكاتم التي صدرت عام ٢٠١٢ بكشف بعض تفاصيله. ومن ثم تصريحات الجنرال الأميركي جورج كيسي في حزيران/ يونيو ٢٠١٣.

أو لا، كادتْ أنْ تخبرَنا نحنُ العزّلَ إلاّ منْ هويّةِ المتصارعينَ
بتفاصيلِ سيناريو فيلمِ الكاوبوي
لكنَّ الطلقاتِ كانتْ أسرعَ منْ جهاز "الإس إن جي"[١] في التقاطِ أنفاسِها
ودُفِنَ السرُّ في ملحمةِ موتِها الكارثيّ.
أيّتُها الأمُّ
أطوارُ كانتْ عناقيدَ عنبٍ
كانت رجُلَكِ
وأشقاءَكِ
وأولادَكِ
وأيُّ طاغوتٍ هذا الذي تجرّأ واختطفَها منْكِ
ومنْ قُدّاسِ أصدقائِها الذينَ
لمْ يخرُجوا منْ نكبةِ موتِها بعدُ
صامتةٌ أنتِ اليومَ بصمّامِ الألمِ
ترقُبينَ قبّةَ الإمامِ.
غابتْ أطوارُ
وأنتِ ما زلتِ تمسكينَ بشُبّاكِ الغائبِ،
الإمامِ الذي بكى موتَها،
قرّرَ الغيابَ في غيابِه،

١ إشارة إلى جهاز البث الحي لقناة العربية.

والرقادَ بعيداً في أسطورةِ غيبته
ليبقى مؤجّلاً حتى يبدّلَ اللهُ العراقَ والعراقيين إلى حين.

أمّهاتٌ لم يلدْنني

أ – أمّ عليّ[1]

النّاصريةُ التي لمْ تبصرْها عينايَ
الشطرةُ التي حلمتُ بتقبيلِ ترابِها ذاتَ يومٍ
أرضعَتني حُبَّ الجنوبِ
أمُّ عليّ، حبّبت فيَّ "سمكَ الزوري"[2] وخضرةَ مزرعتِها الصغيرةِ
أحبْبتُ الجيرانَ الذينَ لمْ يكونوا لِصْقَ دارِنا فحسبْ
كانوا لِصْقَ بابِ قلبي
أمُّ عليّ ظلّتْ في حزنٍ لمْ تشأ أنْ تُظهرَهُ أمام أمّي

---

١ امرأة جنوبية من قضاء الشطرة في محافظة الناصرية، وهي إحدى جارات عائلة الشاعرة أمل الجبوري منذ أعوام الخمسينيات.

٢ هو سمك صغير يقلى بالزيت وهو إحدى الوجبات الرئيسية لأهل الجنوب في العراق.

أمّي كعادتِها لا تَرُدّ طلباً لمساعدةِ أحدٍ

حينما أرادتها أمُّ عليّ أن تخفّفَ وطء حمْل الجنينِ

ونارَ تنّورِها[1] الملتهبِ

فأسرعتْ إليها ممسكةً بالخبزِ الحارِّ الشهيِّ في حضنِ جارَتِها

أمّي التي

يَجري في عروقِها حُبُّ الجيرانِ

الجيران الذين كانوا

العشيرةَ

الطائفةَ

والعائلةَ والوطنَ

كانتْ أمّي حريصةً في حجبِ أعوادِ الثقابِ عنْ طفلَتِها إقبال التي

لمْ تُكملْ سنواتِها السبعَ

والتي تلعبُ بعروسةٍ

أسْمَتْها دُنيا

لماذا دُنيا؟

لأنّها ستأخذُها سريعاً إلى دُنيا مبكّرةٍ

إقبالُ كانتْ هادئةً مثلَ شعرِها الأحمرِ المنسرحِ فوقَ كتفَيْها

---

١ التنّور: هو الفرن المصنوع من مادة الطين المشوي الذي يستخدمه العراقيون لصنع الخبز.

ووجْهِها النادرِ في زِقاقِ كرّادة[1] مرْيم
بنُقاطِها الشهباءِ
حلوةٌ وكأنّها ملاكٌ كما كانَ الجيرانُ يردِّدونَ
كانتْ أمّي تخافُ على آخرِ العنقودِ،
طفلتها النائمة بعيداً عنْ حديقةِ المنزلِ حيثُ تلعبُ إقبال ورفيقتُها
لعبتَها الافتراضيةَ دُنيا
أرادتْ إقبالُ أنْ تعاقِبَها بإشعالِ النارِ في ورقٍ قربَ ثوْبِها
احترقتْ الحديقةُ بعودِ ثِقابٍ طالَما كانَ بعيداً في أعلَى رفٍّ للحياةِ
لكنّ صغيرتَها التي كانتْ تُشابهُ الملائكةَ
تجرّأتْ وكسرتْ كلامَ الأمِّ
وسحبتْ عودَ الثقابِ إلى لعبتِها
ظنّتْ أنّ النارَ
يمكنُ لها إكمالُ لعبةِ العروسِ والبيتِ بيوت[2]
النارُ كانتْ جائعةً مثلَ كلِّ نارٍ لئيمةٍ طامعةٍ بالرمادِ
النارُ غيرُ مصدّقة أنّها ستكبرُ وهيَ تلتهمُ جسداً طازَجاً
وكأنّه كانَ مُعَدّاً لوليمةٍ تفوحُ منها رائحةُ الأطفالِ

---

١ هو حي بغدادي أطلق عليه الأمريكان بعد احتلالهم بغداد اسم المنطقة الخضراء Green Zone.

٢ إحدى لعب الأطفال الصغار الذين يخترعون من خلال خيالهم الطفولي أسرة افتراضية يسمونها بيت بيوت.

استأذنتُ أمّي... أمّي، أمّ عليّ التي لم تَلِدْني
كانتْ تنوءُ بحمْلِ حملِها وبطنِها المتدلّيةِ باقترابِ المخاضِ
أمّي التي قلقُها الأزليّ أصرَّ عليها بمراقبةِ بابِ بيتِها الذي لَمْ يُغْلَقْ
ولا مرّة
هذهِ المرّةُ أغلقتْ الأقدارُ على عجلٍ بابَنا لتستفردَ النارُ بطعامٍ بمذاق
نادرٍ
شقّتْ أمّي السماءَ بصراخِها
ثقبتْ الصدمةُ نَهدَيها المحمّلتينِ بالحليبِ
الحليبُ الذي أصرَّ على النواحِ منهمراً نافراً
يريدُ الهربَ منْ صدرِ أمِّ إقبالٍ المفجوعةِ
بكتلةِ النارِ،
طعمُ اللهبِ،
أمّي الحبيبة،
حملَتْ لحماً يُشوَى على يديْها وذراعَيْها
مثلَ مجنونةٍ تخرجُ تصرخُ بأمِّ عليّ:
"أغيثيني...
إنّ خبزَكِ لنْ يأكُلَهُ أحدٌ... بعدَ اليومِ،
خبزُكِ كانَ مصيدةً لإقبال،
أغيثيني يا صاحِبَتي".
خرجَ الجيرانُ مذهولينَ

بنارٍ بدأتْ تخمدُ رويداً

وأمّي يُغطّيها رمادٌ

لا يمكنُ أن تتصوَّرهُ أيّ أمٍّ

رمادُ

طفلتِها الحلوةِ ذاتِ الشعرِ الأحمرِ

التي ذابتْ بينَ ذراعَيْ أمِّها

لتتبخّرَ بينَ صرخاتِ الجيرانِ متحوّلةً إلى غمامةٍ.

أمُّ عليّ لعنَتْ ولادَتها

كانتْ تريدُ أن يأخذَها الموتُ

حتى لا تبقَى تذكرةً لعائلَتنا بموتِ إقبال

لكنّ الله منحَها حليباً كانتْ تُرضعُ بهِ كلَّ أيتامِ الصالحيةِ

وكنتُ أنا مَنْ يَتّمَنِي رمادُ أخْتي

وجعلَ أمّي عليلةً على القيامِ بدوْرِ الأمومةِ القاتلةِ التي أورثَتْها

كلَّ هذا الحزنِ المستديمِ

حليبُ أمِّ عليّ أخذَني إلى أزقّةِ الشطرةِ وأصبحتْ – أمُّ عليّ –

أمّي التي لَمْ تلِدْني

لكنّها أورثتْني محبّة العراقِ الذي بكتْهُ وهيَ تصرخُ بِسارقِيهِ عامَ ألفين وثلاثة

وتحفظُ منهُمْ صندوقَ كرّادة مريَم حينما هَبَّ المُحَوْسِمونَ

ينهبونَ بغدادَ ويزنُونَ بها

أمّ عليّ شهدَتْ مثلَ أمّي عقوداً من حُكّامِ العراقِ
وكانتْ تقُصُّ لِي مثلَ حكواتية،
شهدَتْ انتفاضَ الشطرةِ هناكَ،
ومنْ ثمّ عادتْ إلى بغدادَ
وهيَ لا تستطيعُ نسيانَ – وحيدِ أمّه –
الأخرسِ[1] الذي غيّبتْهُ المقابرُ الجماعيةُ بعيداً عنْ حضنِ الجنوبِ
لكنّها لَمْ تُكملْ حكايتها حتى عاشتْ روايةَ الرواياتِ كلِّها
سقوطَ مدينة أحبّتها ودافعَ ولدُها – عليّ – عنها
حتّى بعدَ أنْ مضَى المقاتلونَ إلى بُيوتهمْ ومُدنِهمْ
عليٌّ الذي ماتَ قبلَها
لَمْ تكنْ تصدّقُ أمّه
أنّها بعدَ سنواتِ الترقُّبِ وزواجِ الجنوبِ بمدنِ العراقِ
ستشهدُ موتَ أعزّتها واحداً إثرَ آخَر
وتشهقُ بموتِ جارَتِها
صاحبةِ عمرِها
أمّي
لكنّني وأنا أشهدُ موتَ أمِّ عليّ
شهدتُ موتَ تاريخٍ لنْ يتكرّرَ أبداً في ضميرِ بغدادَ.

---

١ إشارة إلى أحد شباب جيران أم علي في الشطرة الذي لم يشارك في انتفاضة عام ١٩٩١، لكنه غيّب في المقابر الجماعية بعدما قمعت الانتفاضة.

ب – تراوتا[1]

الأمومةُ لا تعرفُ لغةً أو ديناً أو هويّةً في سجلِّ النفوسِ
كنتِ جارةً بلّلتِ أيامَ المنفَى اليابسةِ بماءِ زمزم
ودفّأت ليلَ ألمانيا الباردَ بشمسِ روحِكِ
تراوتا كانتْ صديقتي
وأمّي التي لمْ تنجبْني
كانتْ تبرهنُ لِي بدمعتِها التي تنحدرُ
حينَما تخونُني عيوني
أنّها هنا مِنْ أجْلي
ألمانيا لمْ تنتمِ إلي
إلا لِروحِكِ
ولجمالِكِ في عصمةِ الأمّهاتِ الصالحاتِ
لا شيءَ
منها لديَّ غيرُ قلبِكِ

١ جارتي في المنفى الألماني في ولاية بافاريا.

وقلقكِ الذي تفرّدتِ به عن بلادكِ
التي لا تقلقْ إلاّ وفْقَ برنامج إلكتروني
كأنّكِ حملْتِ هويَتكِ ظُلماً وخطأً
أنتِ أمٌّ شرقيةٌ حدَّ الوجعِ.
يا توأمَ أمّي في توجُّسِها
وخوفِها على أولادها المتناثرينَ
كنتِ لا تخافينَ أيَّ شيءٍ
شهدتِ حروبَ هتلرَ كلَّها
وشهدتِ بعدَ قرنٍ سقوطَ مدينتي التي كُنّا نحلمُ بزيارتِها معاً
أنتِ الألمانيةُ التي عرفَتْ أزقّةَ بغداد بمنظار حسرتي
كُنتِ تشاطرينَ حُزني عليها وكأنّها مسقطُ رأسِكِ
وكانَ العراقيون الذين أُجبِروا على السفرِ للحروب
كأنّهمْ كلَّهُم خرجوا منْ رحمِكِ أنتِ، ولكنْ متى وكيف؟
كنتِ تقولينَ إنّكِ أمّي
وجدّةُ وحيدتي التي تبصرُ بينَ ذراعيْكِ وجهَ جدَّتِها هناكَ
وأنتِ التي لمْ يزُرْكِ العراقُ حتّى في الحلُمِ
كيفَ أنجبتِ هؤلاء؟
وقلتِ إنّ الأمَّ هيَ منجمُ القلقِ
لكنّها
أيضاً

آبارُ حبٍّ لا تجفّفُها كلُّ شموسِ الغضب
الهويّاتُ التي باعدَتْ بيني وبينَكِ
احتوتْني في سجلاّتِ عائلتكِ التي لم يبْقَ منها غيرُ
رمادٍ في مقبرةٍ
أخبرني عنْها غبارُ بغدادَ
أنّكِ كنتِ هناكَ
باحثةً عنْ
ابنتكِ التي لم يَلِدْها رَحْمُك
عنْ حفيدةٍ كنتِ لهَا
صندوقاً كاتماً لأسئلتِها
الصعبةِ عليَّ
ففِي المنافي
تكثُرُ الأسئلةُ
وتُصابُ الأجوبةُ بالخرسِ
وبعُقمِ الخروجِ منْ جَرْفي الشفاهِ
تراوتا
أنتِ أمٌّ حمَلتْها رياحُ العولمةِ هناك
بعيداً عنْ قبرِها الذي كانتْ تخافُ منهُ
وتخشى دودةً جائعةً لبقايا ما حملتهِ من فراغاتٍ وفراقاتٍ
هل تعرفينَ أنّكِ هناكَ ترقدينَ في سجلِّ الأمّهاتِ العراقياتِ

اللاتي لا يعرفْنَ غيرَ أبجديّةِ القلقِ
وانتظارِ الذينَ لنْ يعودوا أبداً.

ج – أمُّ قاسم

يا أمَّ قاسم كأنّكِ قدرِي
وكأنّني لاَ يُمكنُ أنْ أغادرَ مُرضعتي الناصريةَ
إلاّ لأرتمي وأتلذَّذُ بحليبِ أمّهاتِ الجنوبِ
أقْسمتِ حينما ترمَّلْتِ
ولْمْ تكوني غيرَ شابّةٍ جلبتْها الأقدارُ إلى مدينةٍ تغوي وتشظي
والمدنُ غيرُ رحيمة بالغرباءِ
المدنُ كانتْ قادرةً على التهامِكِ بزواجاتٍ أو ضياعاتٍ
لكنك تزوّجتِ إلى الأبد أولادَكِ
وسوادَ ثيابكِ
متحوّلةً إلى خيمةٍ فوقَ ابنكِ الرضيعِ
ووحيدتكِ التي شابهَتْ صلابةَ الرجالِ
لْم تدعْكِ جارتكِ أنْ تعودي إلى قريتكِ في الرفاعي[1]
فكلُّ بيوتِ بغدادَ هيَ مسكنكِ

[1] هو قضاء صغير تابع لمحافظة الناصرية في العراق.

وأنتِ أمٌّ طفلتي التي لا ترتَوي إلاّ بحليبِ الجنوبِ
كنتِ تتناوبينَ وأمٌّ عليّ على واجبٍ مقدّسٍ لأمٍّ وكأنّها ولدَتْ توّاً
لمْ يكنْ في صدرِكِ إلاّ حليبُ القروياتِ المندهشات
كنتُ أبحثُ عنهُ بعدما ضربَ الموتُ بحليبِ أمّي
ولدتُ بأمهاتٍ لا يتكرّرنَ إلاّ في بغدادَ أيامَ زمانِ
العجيبُ أنَّ حليبَكِ كانَ هواءً يشمُّهُ الطفلُ
وكانَ ولدُكِ قاسمٌ المدلّلُ يرقصُ أيضاً بينَ أحضانِ الأمّهاتِ البغداديات
كبرتِ وأنتِ لاَ تعرفينَ غيرَ سوادِ ثوبِكِ
وبياضِ حليبكِ الذي لمْ يكُنْ غيرَ طيبةِ الجنوبِ كلِّه
كبرت طفلةٌ أرضعَها هذا القلبُ؛
طفلةٌ كانتْ تسخرُ منَ الموتِ وتتنبأُ به
أردتِ منها معرفةَ موتِكِ
بعدَ عامينِ كانتْ طفلتُكِ التي كبرتْ
وكبِرَ معها همٌّ مبكّرٌ منَ الخوفِ
تقرأُ في صفحةِ التعازي المهرَّبةِ إليها منْ بغدادَ
خبرَ نعْيٍ آخر ثديٍ تحوّلَ إلى رئةٍ قهرَتْ داءَ الرّبوِ لأيتامِ المدينةِ
أمّي التي لمْ تلدْني
صدقتْ نبوءَتِي

وهي تسرقُ صبر بغدادَ
لتنامَ بعدَ كُلِّ سنواتِ البعدِ ثانيةً
في قبرِ أمٍّ جنوبيةٍ ختمتْ شبابَها بختمِ الأرملةِ.

عزيمة[1] وأولادُها وطوفانُ الأنفال

يا عاصي لا تبحثْ

ولا تُطلِ البحثَ

فنحنُ هناكَ

هناكَ في أخبارِ المفقودينَ

لمْ أتحسّرْ منْ هولوكوست جبانٍ

منْ موتٍ جماعيٍّ اغتالَ القرآنَ بسرقةِ العناوينِ،

---

١ قصة عاصي وعزيمة عثرت عليها في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، ص١٥، ضمن تقرير "صدام حسين، الجرائم وانتهاك حقوق الإنسان، ٢٠٠٢"، تمثلت في عريضة استرحام قدّمها جندي عراقي عاد من الأسر الايراني فكانت صدمته اختفاء عائلته بالكامل ضمن عمليات (الأنفال) إبادة مدينة حلبجة بالسلاح الكيميائي، فكانت إجابة ديوان الرئاسة في العراق كالآتي:

السيد عاصي مصطفى أحمد

طلبك في ٤-١٠-١٩٩٠م

إن زوجتك وأولادك فقدوا أثناء عمليات الأنفال التي جرت في المنطقة الشمالية عام ١٩٩٨.

مع التقدير

سعدون علوان مصلح

ع/ ديوان الرئاسة

اغتالَ الأطفالَ،

اغتالَ انتحاري،

انتظرتك بقلبِ الحبيبةِ،

وقلبِ الأمِّ،

وقلبِ الزوجةِ،

وتلكَ القلوبُ يا عاصي يا ابنَ العراقِ لا تُخطئُ.

هُمْ لَمْ يغيّبونَا أو ينحرونَا،

همْ نحروكَ بغيابِنا

وأيُّ غيابٍ يا أبا أولادي

يا مُدافعاً عنِ العراقِ الذي يكرهونَ

يا عائداً إلى بلادٍ يجتثّونها منْ عشّاقِها.

لا تغضبْ.

فلكمْ أذلَّنِي طلبُ استرحامكَ،

"لقائدٍ" كتبتَ لهُ كلَّ آياتِ الذلِّ هذهِ،

وترانيمَ التوسلاتِ،

ولَمْ يعتذرْ منكَ ولَمْ يفكّرْ بردِّ التحيةِ حتى وإنْ لَمْ تكنْ بأحسنَ منها،

لَمْ يُقدّمْ لكَ كذبةً ولوْ بعقاقيرِ الصبرِ،

ولَمْ يقلْ لكَ حمْداً للهِ على سلامةِ الأسيرِ.

كانَ كمَنْ يخبرُ غريباً يبحثُ عنْ كيسِ نفايةٍ فارغٍ،

وأنتَ كمنْ يسألُهمْ عنْ دجاجٍ فَرَّ منْ حديقةِ البيتِ

أو إطاراتِ سيارةٍ قديمةٍ في مرآبِ المنزلِ،
أوْ كأنّكَ كنتَ تسألُهمْ عنْ لعبةِ ولدِكَ الصغيرِ التي عادَ منْ دونِها إليك.
أيُّ قلبٍ يحملُ هؤلاءِ؟!
منْ أيِّ صنفٍ ضمائرُ هؤلاءِ؟!
هكذا سجّلونا في خانةِ المفقودينَ بجملةٍ واحدةٍ.
يَغْني يا عاصي
كأنَّ الأنفالَ كانتْ رحلةُ أهلِها في طرقٍ مجهولةٍ
أضاعتْهمْ والنظامُ الذي كانَ يقودُ مسيرتَهمْ راجلينَ
لمْ يفقهْ سُمَّ الدخانِ الذي ضاعَ بينَ هويّتِهِ الإيرانيةِ والعراقيةِ
في ميزانِ المصالحِ الأميركيةِ آنذاكَ
ولا سببَ عقابِ المدينةِ بالدخانِ
كُنّا خرافاً فقدَها صاحبُها في لحظةِ القطيعِ الذي انشغلَ بابتلاعِنا
الوطنُ لمْ يشفعْ لكَ
أسْرُ السنواتِ التي ابتلعتْكَ هناكَ في إيران لمْ تقفْ أمامَ دخانِهِمْ
لمْ تُوقفْ سُمَّهُمْ
لمْ تُخجِلْ إصرارَهُمْ على إبادتِنا وإلى الأبدِ
ما ذَنْبي؟
ما ذنبُكَ؟
ما ذنبُهم؟

إنْ كانَ الدليلُ إلى كردمند[1] كردياً يرسمُ أسرارَ الجبالِ للإيرانيينَ؟!
ما ذنبُنا أنْ نُبادَ عنْ بُكرةِ هذهِ الدنيا!
سوى أنّنا أكرادُ!
لَمْ تكنْ من العصاةِ[2]
يا عاصي،
يا مُدافعاً عنْ حُرمةِ "القائدِ" في حربِ الثماني سنوات،
يا حاملاً سلاحاً... خربا متعباً،
فما قيمةُ عودتِك اليومَ من أسْرِ عدوِّكَ
إلى زنزانةِ وطنِكَ
التي لا تحملُ
غيرَ جُثثِ أولادِكَ
وقلبي
الذي لا يراكَ
إلا في دخانِ
قاتليكَ وجلاّديك

---

١ هي منطقة في كردستان العراق.

٢ مفردة كان يطلقها النظام البعثي على الثوار الأكراد.

باب شهداء الحرّية

إمامُ الحرّيةِ... حسن مطلَك

حسن مطلَك[1]

مِنْ قريَتِهِ البعيدةِ عنْ قلبِ بغدادَ

يرسُمُ عراقاً

مليئاً بأنهارِ الحرّيةِ

يُدفِئُ وجهَ الأرامِلِ الجائعاتِ بالخبزِ والأملِ

كما كانَ يفعلُ معَ جارتِهِ

ويحفرُ بالفنِّ على جدرانِ قُرَى الشرقاط[2] وطناً لا تلوّثُهُ الحروبُ

وطناً خالياً من العسكريةِ والعريفِ الغبيّ

وطناً خالياً من موظّفي الأدبِ الرسميينَ

---

١ الروائي حسن مطلَك الكاتب العراقي الوحيد الذي صدر بحقه حكم الإعدام شنقاً أثناء حكم النظام البعثي في العراق. وقد استشهد عام ١٩٩٠ وذلك بسبب اشتراكه في المحاولة الانقلابية ضد نظام صدام.

٢ الشرقاط هو لواء كان تابعا لمحافظة الموصل في العراق ولكنه أُلحق بتكريت في نهاية الثمانينيات، ويمتاز بانتماء غالبية مواطنيه إلى قبيلة الجبور وهي أكبر قبيلة في العراق يترواح عدد أفرادها حوالي الستة ملايين.

الذينَ يحوّلونَ مخطوطاتِ رواياتِهِ وشعرِهِ
بعدَ إعادةِ تصنيعَها إلى ورقِ تواليت منَ الدرجةِ العاشرةِ
لتحقيرِ رُموزِ حكاياتِه
التي كانتْ تريدُ حرْقَ...
جُنونِ العسكرِ والبطولاتِ الورقية،
وخطاباتِ الديناصور التي تحتلُّ القناةَ اليتيمَةَ في عُمْرِ تلفزيونِ العراقِ،
ولا مفَرَّ منْ رُؤيتِهِ،
سماعِهِ،
فحتّى اللهُ كانَ متواضعاً بالمقارنةِ معَهُ
ومعنَا، فَلا يقتحِمُ عُزلتَنَا إلاّ خمسَ مرّاتٍ في اليومِ،
وفي أديانِهِ الأخرى مرّةً واحدةً في الأسبوع.
إلاّهُ...
جعلنا نبتكرُ لوركا عراقياً
عرفناهُ ولكنّنَا حينَما دفعْنَا بحُلْمِكَ يا حسنُ إلى الأمامِ
تركناكَ وحدَكَ كما فعلنَاهَا معَ الحُسينِ
ونفعلُهَا اليومَ مع أهلِكَ في الحويجةِ أو الأنبارِ
نعَمْ لَمْ نعمّدْكَ لتصيرَ أسطورةَ الحرّيةِ في بلدِنَا
لأنّ التاريخَ مقلوبٌ
ولا نتمكّنُ مِن رؤيةِ وجْهِكَ

أو نلْمسُ وجعَكَ إلاّ بقياسِ "الأحزابِ" التي ادّعتْ النضالَ
حسن مطلَك لم يمسكَ ناظورَ عشيرةِ الجبورِ
التي تصدّرَتْ القائمةَ الحقيقيةَ بمحاولاتِ الانقلابِ على البعْثِ
لكنّهُ أمسَكَ بالعراقِ كُلِّهِ
بالعراقِ الذي
لا يتحمّلُ الحُلمَ
في بلادٍ فيها الإعلاميّونَ
والأدباءُ قطيعٌ في مزادِ الصمتِ والسُّلطاتِ
لماذا كنتَ متقدّماً كثيراً على خرائبِنَا؟!!!
على تقديمِ عُنقِكَ لجَلاّديكَ؟
وأنتَ الشجاعُ،
الشجاع،
المتهوّرُ،
المفرطُ في حُبِّكَ للحرّيةِ،
والمفردُ وتاريخُ بلادِكَ جَمْعٌ يَتَشَيّأُ في الهوياتِ
إلاّكَ أنْتَ
هلْ ندِمْتَ اليومَ،
لأنّكَ دافعْتَ عنْ أحلامِ كُلِّ العراقيين
في الانعتاقِ؟!

و لم يتذكّرْكَ أحدٌ منهُمْ إلاّ أخاكَ اليتيمَ محسن الرملي[1]
مغامراً باستحضارِكَ في نشرِ مخطوطاتِك
معتذراً بالنيابةِ عنّا نحنُ الكتّابِ
رافضاً جوائزَ المضطهدينَ "ضحايا حرّية التعبيرِ"
محاولاً إيقاظَ التاريخِ منْ تخديرِ الأكاذيبِ
فاركاً عينَهُ صارخاً بِهِ: أيُّها التاريخُ اسمعْ واقرأْ ودوّنْ...
لتنظرَ إليهِ... إلينا جميعاً،
بضميرٍ غيرِ مثقوبٍ بالتزويرِ أو الطائفيةِ
نعَمْ كانَ هناكَ
بطلُ الحرّيةِ
كانَ هناكَ
للعراقِ
لوركا
وحسين لم يحْلُمْ بخلافةِ العباسيين حينّما قرّرَ تغييرَ النظامِ
كان حسن مطلَك إمامَ الحرّيةِ المظلومِ في العراقِ الجديدِ
كان جيفارا الذي لم نضعْ صُوَرَهُ فوقَ قُمصاننا،
يومَ خرجْنا للتظاهرِ ضدَّ حكومةِ المحاصَصَةِ.
كُتُبُ حسن مطلَك توبّخُنا جميعاً:
"لماذا تتشظُونَ في ميزانِ الطوائفِ غيرِ العادلِ،

---

1 محسن الرملي هو قاص وروائي عراقي، وهو شقيق الشهيد الروائي حسن مطلَك.

غيرِ العاقلِ،
غيرِ الإنساني"؟!!!
يا حسن مطلَك حتّى وإن تأخّرتُ عليكَ بهذا النداءِ،
لكنّي أراكَ هناكَ في السماءِ السابعةِ للقدّيسينَ،
أنتَ وضرغام هاشم وهادي المهدي
لكنّكَ تفوّقتَ
علينَا
فأنتَ حُرٌّ وكذلك هُمُ الصدّيقونَ في زمنِ الأكاذيبِ
ونحنُ عبدَةُ ذوَاتِنا،
وخوفِنا.
يا حسنُ، ألَمْ تندمْ اليومَ على العراقِ الذي أحْبَبْتَ؟!
العراقِ الذي كسرَ أحلامَكَ يومَ وضعَكَ في خانةِ المناطقِ الغربيةِ!!
المناطقِ التي يدّعونَ زوراً أنّها "خسرت الرفاهية" بسقوطِ الصنمِ.
وأنتَ الشاهدُ والشهيدُ،
لا... أنتَ الجمرةُ التي ستبقَى تحرقُ التاريخَ،
التزييفَ،
الأوهامَ،
أنت يا حسن...
يا بطلَ الشرقاط، بطلَ قريةِ السديرةِ هناكَ في الأعالي
يا إمامَ الحرّيةِ... يا بطلَ البلادِ

بناتُك المنسيات... اليومَ
هُنَّ زينبُ المنكوبةُ بحُسينِها المسروقِ في زمنِ اللصوصِ.
لقدْ تأخّرتُ عليكَ كثيراً بهذا الحُزْنِ
تأخّرتُ وانتظرتُ كتابةَ اسمِكَ بعدَ ٢٠٠٣ في طليعةِ الثوارِ ضدَّ النظامِ
ولكنَّ...
الشجاعَ حسن مطلَك الخارجَ عنْ قوانينِ الطبيعةِ في عالَمِ التضحيات،
لْم يقتلْهُ غُموضُ نَصِّه.
حسن قتلَ الوضوحَ في ظلامِ الوطنِ،
فقدْ عَزَّ عليهِ أن يرَى الرجالَ خائفينَ،
والأمّهاتِ متعباتٍ منَ الحروبِ،
عَزَّ عليهِ أن يتفوَّقَ على خيالِهِ النبيّ...
مجرّدَ مُنافقٍ في قافلةِ الرئيسِ.
عَزَّ عليهِ أن يسوقَ رجلٌ واحدٌ أحلامَ الناسِ إلى جهنّمَ،
غيرَ مبالٍ إلاّ بأوسمةٍ منْ نُعوشٍ رُغماً عن أنفِها تسيرُ.
حسن أرادَ أنْ يُنزِلَ الشمسَ والقمرَ إلى وجْهِ العراقِ
ولْم يعرِفْ أنّهما ضدّانِ
وأنَّ بلادَه لا تحتملُ الضياءَ.
ظلَّ يرسمُ في مقهَى ومُنتدَى الأدباءِ الشبابِ قائِمةَ العشّاقِ والعاشِقاتِ،

على مقاساتِ الحبِّ العُذْريِّ
وينقشُ جنْبَ كُلِّ واحدٍ منهم بستاناً منَ الفرحِ في مدنٍ لا تحتملُ
إلاّ البكاء.

وقرى بيضاءَ وخضراءَ وأنهاراً لا يغارُ منها الفراتُ.
الأنهار والجداولُ خطّتْ ورسَمَتْ أسطورةَ حسن مطلَك
حينمَا سارَ بقلبِهِ إلى قرارِهِ بأنْ يكونَ ثائراً..!
ومتَى وأينَ..؟!!!
في الزمنِ الخطأ،
في المكانِ الذي هُوَ مجموعةُ أخطاء.
أمّهُ لْم تصدّقْ أن المشنقةَ سحبتْهُ إلى وجهةٍ أخرى،
غيرَ بيتِهِ المهجورِ الذي أكملَ لِلتوِّ بناءَهُ وبالتقسيطِ
وأنَّهُ لنْ يعودَ أبداً إليها
حتى وإن ناكدَها وأخافَها حينما صرخَ عالياً: "أمي،
السعلوة هو
هوَ الطنطل[1] هو...
هوَ كُلُّ شيءٍ يُقابلُ رعبَ أطفالي ويُخيفُكَ أنتَ أيضاً.
قولِي لمروَةَ قولِي لها إنَّ أباكِ لا يريدُ عُشبَ جلجامش ولا سيفَ

١ الطنطل هو شخصية أسطورية في الخيال الشعبي العراقي يشابه في ضخامته هرقل، والسعلوة هي شخصية شريرة أسطورية من نسيج الخيال الشعبي أيضاً، يُستخدمان في إخافة الأطفال. وهما شخصيتان يمثلان الرعب والخوف.

صلاحِ الدين
ولا أسطورةَ الحُسينِ"
حسن مطلَك أرادَ شيئاً واحداً فقطْ
أن نكونَ حالمينَ،
مدافعينَ عن أحلامِنا،
حتى وإنْ صحّحنا الخطأَ اللُّغويَّ لطغاتِنا كما كانَ يفعلُ هُوَ
لقاضي محكمةِ الثورةِ الملعونةِ أبدَ الدهرِ في حَبلِ المشانقِ.
المشانقُ في بلادِنا لا تليقُ إلاّ بالحالمينَ أمثالِهِ،
الحالمينَ أبعدَ منْ حُدودِ النومِ،
في بلدانٍ تسهرُ وتصحُو...
لتقتلَ كلَّ النائمينَ،
خَوْفَ نبوءَةِ حلمهِمْ في الانعتاقِ،
منْ وَهْمِ الأوطانِ،
الأديانِ والتعاليم.
كلُّها حبالُ المشانقِ تلكَ
بلدُنا لا يليقُ بكَ أيُّها النبيُّ الذي شقَّ الكلامَ،
وأخرَسَ الموتَ الذي غادرَكَ،
وأنتَ تُبصرُ بعدَ عقودٍ ذاتَ الحبلِ الذي حرّرتْكَ منهُ حُرّيتكَ...
يلتَفُّ على ظلمِ ظالميكَ ذاتَ يومٍ كنتَ تريدُهُ احتجاجاً،
وغفراناً لهُمْ منْ ذنبِكَ الذي لنْ يبْرَأَ منهُ كلُّ مَنْ نَسيَكَ،

أو ادّعَى بطولةَ "حرّيةِ التعبيرِ" في بلادِ الدكتاتور.
كانَ زملاؤكَ يصرّحونَ بأنّهمْ ضَحايا النظامِ،
ومُلاحَقون بسببِ قصائدِهم لا غيرَ
حتّى أتعبُوا حملةَ كاميراتِ الإعلامِ الغربيّ
التي كانتْ بأمَسِّ الحاجةِ إلى هؤلاءِ لشَرْعَنَةِ الحربِ ضدَّ العراقِ ٢٠٠٣
خاصةً إذا كانَ الشاعرُ "مختفياً"
أو "متخفياً"، أو حتّى إذا تعدَّى الأمرُ إلى شاعرةٍ " ساخرة " من بلادكَ
أصبحَتْ فيما بعدُ "بطلةَ الحرّيةِ" في بلادِ الأمريكان!!!!
فيما كنْتَ أنتَ... منسيّاً هناكَ،
في الشعبةِ الخامسةِ لدائرةِ الأمنِ العام
في أسرِ الشهورِ الستّةِ منْ عمْرِ التعذيبِ الأسطوريّ
كُنتَ وأنتَ تتقدّمُ زملاءَكَ إلى موكبِ الموتِ يوم ١٨/٧/١٩٩٠
أنتَ فكرةٌ والأفكارُ تُخيفُهمْ
فأحاطوا موكبَ موتِكَ بمدرّعاتٍ،
وطائرةٍ مروَحيّةٍ تحومُ فوقَ الرتلِ المتوجّه إلى مقصلةِ الإعدام.
كانوا يخافونَ فضيحةَ أن يفتضِحَ خوفُهُمْ مِنْ حلمِكَ النبيل...
شابٌ لمْ يُكْملْ الثلاثينَ
حلمَ ولكنْ بصوتٍ عالٍ

بالحرّيةِ
و لم يحلمْ بغيرِها
مجرّدَ حلم في جمهوريّةِ العسكَرِ
لا أقلَّ ولاَ أكثرَ
حرّيةٌ، كلمةٌ طائشةٌ وضالّةٌ وكافرةٌ
وسحريّةٌ في واقعيّتِكَ الحنظلِ التي لا تتحمَّلُ
أيَّ شيءٍ جميلٍ خارجَ إطار المدحِ الحكوميّ.
كمْ نحنُ كذّابونَ إذاً،
ومنافقونَ
يا حسن فلمْ تُخْجِلنا ابتسامتَكَ،
وأنتَ تلتفُّ على حبْلِ المشنقةِ مثلَ طفلٍ يتدلّى بحبلِ الأرجُوحةِ،
لا .... رجلَ يُغتصبُ بقتلٍ مجّانيّ.
لمْ يخجلْ بعضُ زملائِكَ منْ رِثائِهمْ لَكَ...
لقدْ نسَوْا أنّكَ أكثرُ حياةً منهمْ
لأنّهمْ
لم يُجرّبوا الاعتذارَ عن استلامِ أوسمةِ البطولةِ منَ الذينَ أكمَلُوا
اغتصابَ بلادِكَ
وأقاموا أعراسَ دَمٍ في كُلِّ مكانٍ
حينما منَحُوا عمراً إضافياً للدكتاتور:
ثلاثةَ عشرَ عاماً منْ عُمْرِ الحصارِ،

ونحنُ نهربُ منَ العراقِ،
تحتَ حُججٍ وأعذارَ نهرُبُ
وأنت تصرخُ بِنا: ... إلى أيْنَ؟!!!
"والله لو توقّفنا عنِ الخياناتِ والغدرِ بحُلْمِنا...
لتمكّنّا منْهُ ومِنْ كُلِّ طنطلٍ ممكنٌ أن يجيءَ
لا تتْرُكوني إلى شتاتِكُمْ،
ولا تُجرِّبوا منافيَ لا يُمكنُها أنْ تكونَ رئةَ الوطنِ البديلِ"...
صدقَتْ نبوءَتُكَ...
لكنّنا كُنّا نخافُ موتَكَ،
فنَسُدُّ بالأوهامِ آذانَنا ونخْلُقُ أساطيرَ لنجاتِنَا منْ بطْشِ السُّلطةِ.
نتقلّدُ أوسمةَ الدولِ الغربيةِ،
ويُحتفَى بنا،
دونَ أنْ نلتفتَ إلى قبرِكَ اليتيمِ.
كانتْ الأرملةُ هيَ وبقرتُها وحمارُها هناكَ في الشرقاط
أكثرَ صِدقاً ووفاءً منّا لكَ
ولاضطهادِكَ الذي نستعيرُهُ لحصْدِ المزيدِ منْ أوسِمةِ وجوائزِ
"الكتّاب المعارضين"
تلكَ الأرملةُ التي أدمنَتْ صيانةَ قبرِكَ منْ عفَنِ النسيانِ
يا حسنُ أنتَ كريمٌ فمُنَّ عليهِمْ، علينَا، بالتسامُحِ
يا أيّها المسيحُ المُخلِّصُ

والمنتظرُ في عهدٍ فاضَ فيهِ كُلُّ شيءٍ
قريباً في الزمنِ الأبيضِ الذي مُتَّ منْ أجْلهِ...
سيأتي لا محالةَ
اليومُ الذي يُكتَبُ اسمُكَ في أوّلِ صفحاتِ الكتُبِ المدرسيةِ
حيثُ سيتعلَّمُ الجيلُ الجديدُ منْكَ درْسَ الحرّيةِ وحُبَّ الوطنِ
حينما كُنتَ تسخَرُ من أدواتِ التعذيبِ
ولنْ يندهِشَ أطفالُنا ذاتَ يوم
منَ الذين زوَّرُوا أملَكَ في مكافحةِ الخوفِ،
وبعوضِ النفاقِ
ولكنْ وأنتَ تجفّفُ دموعَ أمّكَ،
بدمِكَ، وتهدُمُ بصبْرِ الأمّهاتِ
كلَّ جدرانِ العراقِ التي ضاقتْ علينا بعدَكَ.
فأنتَ معادلَةُ الحقِّ والحلُمِ،
في نَوْمٍ يسرُقُ الأرقَ حقيقةَ ما دوَّنهُ العالَمُ منْ نفاياتِ
و... أكاذيبِ الحكاياتِ[1].

---

١ موقع الشهيد حسن مطلَك يضيء رموز هذا النص: Hassan Mutlak حسن مطلك: hassanmutlak.blogspot.co.uk

ضرغام قلبٌ عابرٌ للطوائف

يا ضرغامُ[1]، كُنّا في زمانِك

إمّا صامتينَ

أو مهرِّجينَ

أو توفيقيينَ

ثمّ بعدما هربْنا أطلقوا عليْنا[2]:

مُرْتدِّينَ

---

١ الإعلامي ضرغام هاشم هو أحد شهداء الحرية الذي عارض بمقال ما نشرته جريدة الثورة الناطقة باسم حزب البعث في العراق عن وصف يسيء لأبناء الجنوب من الشيعة الذين شاركوا في انتفاضة عام ١٩٩١، وبعدما قامت جريدة بابلٍ التي كان يملكها عدي صدام حسين بنشر مقال ضرغام شنّت عليه بعدها هجوماً بنشر كاريكاتور ساخر يصوّره على هيئة قزم يخزّ بإبرة ساق الكاتب الافتراضي لسلسة مقالات الثورة وهو عبد الجبار محسن السكرتير الإعلامي لصدام حسين آنذاك، أعقبها اعتقال السلطات لضرغام واختفائه في الوقت نفسه هو والمفكر عزيز السيد جاسم حتى هذا اليوم.

٢ إشارة إلى قوائم أصدرها عدي صدام حسين بحق الأدباء والإعلاميين الذي غادروا العراق ولم يعودوا، وقد قسّمهم إلى ثلاث فئات: فئة المرتدين، فئة الباحثين عن العمل وفئة المتأرجحين.

باحثينَ عنِ العملِ
أو مُتأرجِحينَ
إلاّ أنتَ يا ابنَ الأعظمية المبتلاة،
الذي أمسَكَ بصوتِهِ عالياً
أمسَكَ برأسِهِ عارفاً
أنَّ الدفاعَ عنِ الحقِّ هوَ اغتصابٌ للوطنِ
والحكوماتِ في بُلدانِنا المريضةِ
دافَعَ بأعْلى صوتٍ للرأيِ عنْ أهلِ الجنوبِ
بأعلى صوتٍ فيما كانتْ أصواتُنا متخاذِلةً
قلِقةً
خائِفةً
بعدما اختزلَتْ فوْضَى القادمينَ من خلفِ الحدودِ
انتفاضةَ جيشِ العراقِ المنسحبِ منَ الكويتِ
فلماذا حدثَ كُلُّ الذي حدثَ؟
كُنّا نسألُ بصمتٍ
لكنَّ مقالاتِ جريدةِ الثورةِ كانتْ تُجيبُ عن هذا السؤالِ
السؤالِ المسمومِ
بصوتٍ غريبٍ على عراقيّتِنا.
صمْتَنا... نعمْ
ومَنْ يدّعي غيرَ ذلِكَ كاذبٌ

منتحلٌ دورَ الأبطالِ في زورِ التاريخ
وما أكثَرَهُمْ يا شهيدَ الحرّيةِ يا مدافعاً عنْ شعبِكَ
وما هَمُّكَ إن كانوا شيعةَ الجنوبِ أوْ غيرَهُمْ
كنتَ عراقياً صرفاً لا تقبلُ القسمةَ على الطوائفِ
يا مَنْ يُسمُّونَ أهلَكَ اليومَ بأهلِ الغربيةِ[1]
ويتندَّرُونَ عليهمْ بالمادةِ ٤ إرهاب[2]
يا ضرغامُ
تتذكّرُ يومَ غضبْتَ
فكيفَ يصفُ كائناً مَنْ كانَ أهلَ الجنوبِ بالطارئينَ
القادمينَ منَ الهندِ خاصةً وأنّنا أكثرُ الشعوبِ عنصريةً بالنظرِ إلى
شعبِ الهندِ العظيم
كائناً مَنْ يكونُ
وصدّقت أنّ عراقَ ما بعد ١٩٩١ هو عراقُ جريدةِ بابل
ديموقراطيّتُها التي أطاحتْ بالكثيرينَ
وأكلْتَ الطُعْمَ يا صديقي
فبعدما صفّقوا لكَ

---

١ أهل الغربية: هي التسمية التي تطلق اليوم على العراقيين الذين يقطنون المدن الغربية بغالبيتها السنّية.

٢ المادة ٤ إرهاب هي الفقرة في قانون مكافحة الإرهاب الذي أُسيء استخدامه من قبل السياسيين المتنفذين للإطاحة بخصومهم وتحديداً من الطائفة السنّية التي غالباً ما تحوّلت هذه الفقرة وكأنها المعادل للتعريف بسكان المناطق الغربية في العراق.

بِشَتْمِكَ الكاتبَ الافتراضي للمقالاتِ المريبةِ عنْ أهلِكَ الجنوبيينَ
عبد الجبار محسن
الذي سُرعانَ ما بدَّلَ اسمَه بـ ٢٠٠٣ ليكونَ اللامِي معلناً براءتَهُ
ممّا نُسبَ إليه
ووجدَك أنتَ
كتبْتَ
غضبْتَ فالتفّوا عليكَ في أقلِّ من ٢٤ ساعة
بكاريكاتور ساخرٍ
أرادوا تصويرَكَ قزماً يخز بإبرةٍ،
هي رأيكَ لا غيرَ، قدم العملاقِ هرقل، الكاتبَ الافتراضيَّ الذي
لبِسَ قناعَ الرئيسِ معلناً غضبَهُ على مَنْ شاركَ بانتفاضةِ عام ١٩٩١.
أتذكّرُ وجهَكَ الأسمرَ
أتذكّرُهُ يومَ قدِمْتَ لوَداعِنا على نحوٍ مفاجئٍ
في بيتِنا جريدةِ **الجمهوريةِ**
أتذكّرُ وجهَكَ وقدْ بَدا مودّعاً
صاعداً سلَّمَ الحياةِ هاتفاً بالموتِ:
"بعد متسوه طاح حظّ الصحافة"
مضَيْتَ إلى أمِّكَ الافتراضيةِ
البطلةِ في زمانٍ عقيمٍ بإنجابِ الأبطالِ بعدَ حسن مطلَك
حتّى ولَوْ بالوكالةِ

لكنّها وباسمها الصريح

نرمين المفتي[1] الوحيدةُ التي وقفَتْ وصرخَتْ مطالبةً إيّانا

بحملةِ البحثِ والسؤالِ عنْكَ

مجرَّدَ توقيعٍ لا أكثرَ ولا أقلّ

لِفَكِّ لغزِ اختفائك يا زميلَنا المغدورَ

نحنُ الصحفيينَ

نحنُ الكتّابَ

مجرَّدَ التوقيعِ أخافَنا

أرعبَنا فكيْفَ نجرُؤُ على سؤالِ ابنِ الرئيسِ

في زمنٍ عليْنا أنْ نُجيبَ عن الأسئلةِ لا غيرَ

وأنْ نأخُذَ هذا الدورَ حتّى لوْ مكّنّا المقصلةَ مِن أحبِّ الناسِ إليْنا

كما كانَ الأطفالُ ببَراءَتِهِمْ يفعلونَ

حينما يسلُبُ طفولَتَهمْ رجالُ الأمنِ أو بمزاحٍ افتراضيّ للرئيسِ

اختفيْتَ، ابتلعتْكَ عتبةُ وزارةِ الثقافةِ والإعلامِ

مجلسُ محافظةِ بغدادَ الشاهدةِ على غدرِهمْ

غدَروا بوَعْدِهمْ

غدَرُوا بالحرّيةِ التي كانُوا يَزْنونَ بها علَناً

---

[1] نرمين المفتي إعلامية وكاتبة عراقية عرفت بشجاعتها وجرأتها وكانت قد دفعت أيضاً ثمناً باهظاً من حياتها المهنية والإنسانية آنذاك بعد قيامها بالدفاع عن زميلها ضرغام هاشم ومحاولتها للبحث وسؤال السلطة عنه عام ١٩٩١.

واختفتْ
هِيَ في ظلم ظالميكَ
واختفيتَ أنتَ
ونحنُ وأهلُ بيتِكَ تتقدّمُنا ابنةُ كركوك
ما زلْنا نفتّشُ في عصر ديمقراطيّتنا الأمريكيةِ
عنِ الحرّيةِ المغتصبةِ في كُلِّ الأزمانِ،
التي اختفيتَ منْ أجلها،
لنستعيدَكَ ولوْ حلماً بعراقٍ لا يقبلُ القسمةَ مثلَ قلبِكَ على طائفتين.

سرقوا حياتَكَ... ولكنْ

كُنتَ تحبُّهَا مثلَ مجنونٍ أفلَتَ عقالَ حكمتهِ منْ فرْطِ هذا العشقِ
وكانتْ هيَ امرأةً
يهتفُ لها الجميعُ
يحبُّها
يحلُمُ بِها
يرقُصُ لَها
ولكنْ لا يموتُ منْ أجلِها إلاّ الصدّيقين من أمثالِ حسن وضرغام
ولأنّها لا تُشبهُ النساءَ
ولأنّكَ لا تُشبهُ الرجلَ العراقيَّ
فالعراقيّونَ
لا يُشابِهُ جُبنُهُمْ جُبْنَ الرجالِ
كُنتَ الاستثناءَ والمجازَ
يا ابْنَ العراقِ المدنيِّ الذي حلمْتُ بِهِ
وأنتَ تتقدّمُ قدَرَكَ

ولا تفرُّ منْهُ

يا هادي[1] يا شهيدَ الحرّية الأوّلَ بعدَ ٢٠٠٣

كنتَ تريدُ استعادةَ خبزِ أمِّكَ

وطنِكَ الذبيحِ هكذا كُنتَ تُسمّيه

لْم يشفعْ لكَ

أمُّكَ كانتْ تُصلّي كُلَّ ليلةٍ

كيْ لا تُضافَ إلى سجِلِّ المغدورينَ

كنتُ أقولُ لكَ عبْرَ أسمائي الافتراضيةِ في الفيس بوك:

لا تكتبْ باسمِكَ الصريحِ،

كُنْ كشَلَشٍ العراقي[2]،

كُنْ كسميرِ الخليل[3]،

---

١ هادي المهدي: مخرج وفنان وإعلامي عراقي عرف بدعوته لأولى تظاهرات الاحتجاجات السلمية في ساحة التحرير ببغداد، كرّس حياته في السنوات الأخيرة للدفاع عن الحريات المدنية وفضح الفساد والمطالبة بالتغيير السلمي، وقبل يوم من إحدى تظاهرات الجمع التي كان يدعو إليها ويحشد لها، كتب على صفحته في الفيس بوكِ أنه تعرّض للتهديد وسوف يقتل، وبالفعل بعد ثلاث ساعات من رسالته هذه تمكن أعداء الحرية... القتلة من اغتياله في منزله ببغداد عام ٢٠١١، وقد قيّدت الجريمة كالعادة ضد مجهولين.

٢ شلش العراقي هو أحد الكتّاب العراقيين الذي بدأ بنشر مقالات اتّسمت بأسلوبها الساخر الذي يعتمد اللهجة العراقية في أحيان كثيرة، حارب الطائفية في أوج العنف الطائفي، كان وما زال لغزاً بالنسبة إلى قرّائه الذين يجهلون حتى هذه اللحظة هويته الحقيقية.

٣ سمير الخليل هو الاسم المستعار الذي كان يستخدمه المفكر العراقي الشهير الدكتور كنعان مكية قبل سقوط النظام السابق أثناء إصداره العديد من الكتب

كُنْ...

كُنْ...

لكنّكَ لَمْ تشأْ إلاّ أنْ تضعَ يديْكَ بيَدِ الصدِّيقينَ منْ شهداءِ الحرّيةِ

النادرينَ جدّاً في بلادِك يا هادي

كُنتَ تكتُبُ وتشتُمُ وتصرخُ

وتهتفُ للعراقِ بملايينهِ الجائعة

كُنتَ تُسمّي العمليّةَ السياسيّةَ قمامةً

وعلى الشعبِ أن يحلمَ

أَلَمْ يخلقْنا اللهُ حالمينَ؟!!

لنقدّس الحياةَ بالعيشِ؟

فلماذا

يا أمّهاتَ هادي المهدي اللواتي خرَجَ منْ أجلهِنّ

في العماديةِ في بغدادَ في النجفِ

كربلاءُ والنجفُ والبصرةُ والعمارةُ

صمتْنَ حينما هَبَّ إخوانُهُ

هناكَ في الرمادي

في الحويجةِ

يُكمِلونَ إيصالَ صرختهِ

كي لا يسجّلَ الكاتمُ في بلدِنا بعدَ موتِهِ أيَّ انتصارٍ للقتلةِ؟

النقدية والأكاديمية المهمة التي حللت ظاهرة العنف والقسوة لدى نظام صدام.

لا تصمتْنَ فالكاتمُ جبانُ

لَوْ كانَ غيرَ ذلكَ لتجرّأ وأطلقَ صوتَ الرصاصِ وهويّةَ قاتِليهِ

نحنُ نعرِفُها يا أيّتها الأمهاتُ

هادي المهدي من هناكَ يصرخُ في أحلامِنا ويوقِفُنا موبّخاً

حينما نستسلمُ لليأسِ

عينُهُ تراقِبُ الفيس بوك

وموْقِعُهُ حيٌّ بمحبِّيهِ

بحُبِّهِ الذي ماتَ منْ أجْلِهِ

بأمّهاتِ العراقِ

يا شبابَ العراقِ المنهَكِ

أيّتها الأمّهاتُ الحالِماتُ بالحياةِ

أيُّها الصغارُ

الحالمونَ بالتغييرِ

الحالمونَ بالوطنِ

دونَ مأتَمٍ، دونُ مفخّخاتٍ دونَ كاتمٍ،

دونَ دريلاتٍ

دونَ فديرالياتٍ

دونَ طوائفَ

دونَ رؤوسٍ مقطوعةٍ

دونَ إعداماتٍ

دونَ سُرّاقِ المقابرِ

دونَ أحزابٍ

دونَ انتخاباتٍ معوقة

دونَ تزويرٍ

دونَ شحّاذينَ وشحاذاتٍ

دونَ قاذوراتٍ

دونَ عمائمَ كاذبةٍ

متطرّفةٍ

دونَ ثاراتٍ

دونَ شعاراتٍ

منْ أجلِ أن يظلَّ الوطنُ حاملاً كلَّ تلكَ السرطاناتِ

سَرَقوا صوتَ هادي المهدي

أيها الأطفال... القادمون بالأمل ذات يوم

سجّلوا في تاريخِ العراقِ رجلاً أحبَّ بلدَهُ

أحبَّ الحرّيةَ

أحبَّكُمْ

عَرفَ أنّهُ المقتولُ بهذا العشقِ لا محالةَ

مِنْ أجْلِكُمْ

يصرُخُ اللهُ بِكُمْ:

مِنَ العارِ أنْ تمضُوا صامتينَ ولا تُسقِطوا بالصوت

قتلةَ

هادي المهدي...

شهيدِ حرّيتكُمْ المغتصَبَةِ

وأنتُمْ خائفونَ في زمنٍ ماتَ فيهِ الشهداءُ

منْ أجلِ شيءٍ واحدٍ فقطْ: أن تحلُموا بالحرّيةِ وتُخيفوا بِها ذاتَ الخوفِ...

يا ولدي يا عمرُ يا ابن عليّ

أيُّها الولدُ الجميلُ

أيُّها الولدُ النظيفُ

يا "عمرُ"[1]

أكنتَ تدري أنّك ستذهبُ للقاءِ أخيكَ هناكَ

عثمانَ بْنِ عليّ[2]

شهيدِ جسرِ الأئمةِ

فمنذُ ثمانيةِ أعوامٍ

وعثمانُ يرقبُ بغدادَ وأهلَهُ ويريدُ العودةَ

ليقولَ للذينَ نَسوا أنّ غيابَهُ هناكَ كانَ برْداً وسلاماً على عُمْرِ البلادِ

عامَ ألفين وخمسة حينما كانَ الأخُ يفتكُ بأخيهِ

---

١ هو أحد شهداء التظاهرات السلمية في محافظة الأنبار، ناحية الفلوجة، استشهد برصاص الجيش العراقي عام ٢٠١٣.

٢ شهيد جسر الأئمة، ابن الأعظمية الذي أنقذ الزوار الشيعة عام ٢٠٠٥، حتى سحبته إحدى العجائز التي أراد أن ينقذها فاستشهدا معاً وأصبح رمزاً للوحدة الوطنية بين الشيعة والسنة في العراق.

ويقذفُ بالرؤوسِ في دجلةَ والفراتِ
وكأنّ الغرابَ أكثرُ رحمةٍ منّا "نحنُ العراقيين"
لكنّ شعبَ عثمانَ أو أبيهِ عليّ
كانا لا يعرفانِ غيرَ لغةِ الثأرِ
زوّارُ الإمامِ الذين ابتلعتهُمْ دجلةُ في لحظاتٍ
و لمْ يتقدّمْ الإمامُ الكاظمُ حتى يوقفَ الحشودَ منَ الموتِ
أو أنْ يضربَ دجلةَ بقيدِه هناكَ في الكاظميةِ،
كانَ ينوءُ بالحزنِ على بلادٍ أحبّها فاختلفتْ في حبِّهِ
لكنَّ اللهَ كفكفَ دمعَ الكاظمِ الذي يريدُ منْ زوّارِهِ أن يُفرِّحُوهُ بالفرحِ
بدلَ سَجْنِهِ في اللَّطْمِ والنواحِ
ويقولُ إنّهم بنو العباسِ عمومّتي،
فلماذا الخنجرُ والنصلُ في ظهرِ جدّي وجدّكم محمدٌ؟!
محمّدٌ حزينٌ على أمّتهِ التي جاءَها بكتابٍ واحدٍ
وها هيَ تتشظّى إلى أمرٍ آخرَ غيرِ الإنسانِ،
غيرِ الحرّيةِ،
غيرِ اللهِ.
حزينٌ كانَ الكاظمُ فدفعَ اللهُ بعثمانَ بنِ عليّ وحمّلَهُ برئاتِ عالمٍ خالٍ منَ الطوائفِ
عالمٍ نظيفٍ كوجْهِ عُمَر شهيدِ رصاصِ جيشِ العراقِ

فحملَ أمّهاتهِ وخالاته وعماته اللواتي أرذْنَ الحجَّ إلى بيتِ الكاظمِ
حتّى ذهبَ عثمانُ معَ آخرِ مَنْ شهقتْ بهِ وتواريا معاً في مياهِ البلدِ
المتحاربِ مع ربّهِ ونفسهِ.
كانَ عثمانُ شهيدُ الأعظميةِ حزيناً وفرحاً معاً فإنّ عمرَ لنْ يضيعَ
دمُهُ في قبرٍ صغيرٍ،
ومحطاتٍ للعزاء والثأرِ،
لا، عثمانُ يقولُ: يا جدَّنا، أيُّها الإمامُ الذي تحرُسُ بغدادَ بعدَ الله،
أيُّها الكاظمُ،
أراكَ حزيناً وأنتَ ترَى طوقَ الخوفِ يخنقُ بغدادَ
أهلَ العراقِ،
وتبكي قتلَ العراقيّ لإخوتهِ،
وشماتةَ العراقيّ بأهلهِ
وشكَّ الأخِ بإخوتهِ،
واغتيالَ الحقِّ للإنسانِ.
هلْ اخترتَ هويّتكَ حينما ولدتْكَ الأقدارُ منْ نُطفةٍ طفلاً عراقياً
لتُسجّلَ في قيدِ نفوسِ الأنبارِ؟!!!!
يا عمرُ قالوا عنكَ طائفياً وتريدُ عودةَ المهزومينَ الذين تركوا العراقَ
ذبيحةً وهربوا إلى العارِ
قالوا عَنكَ "بعثياً"!
حاشاكَ!

وأنتَ يا ربيعَكَ العشرينَ

عشرُ سنواتٍ منْ عمْرِ الحصارِ

واحتلالِ الفلوجةِ ألفين وثلاثة

كنتَ طفلاً تخافُ الطائراتِ وتكرهُ الغارات

ولا تعرفُ ماذا يعني أنْ تكونَ حزبياً أو بعثيّاً

إلا معنىً واحداً أنّكَ تخافُ منْ وكيلِ الأمنِ آنذاكَ،

والمخبرِ السرّيِّ اليومَ.

كنتَ تريدُ أن تتوقّفَ الحربُ حتّى تعودَ إلى المدرسةِ وتلعبَ في الساحة

"فهلْ الأطفالُ كانوا بعثيّين أيضاً دون أن ينتموا؟!!!!!"[١]

كبرتَ يا عمرُ ولمْ تَرَ مثلَ شبابِ وشاباتِ العراقِ بعدَ الحربِ غيرَ الإرهابِ،

وفِرَقِ الموتِ،

المقابرِ الجماعيةِ فضيحةِ البعثِ الذي لا تعرفُهُ أنتَ

ويتّهمونكَ اليومَ بالخروجِ منْ أجلِهِ.

كبرتَ وحلمْتَ، مثلَ خالِكَ شهيدِ الحرّيةِ هادي المهدي، أن ترى عراقاً نظيفاً

وفلوجة لا تُضربُ بأسلحة محرّمة

ويصرخُ العالمُ كلُّهُ محتجّاً على الأمريكان إلا حكومتَكَ وشعبَكَ

---

١ إشارة إلى مقولة صدام حسين: "كلّ العراقيين بعثيون وإن لم ينتموا".

الذي لزِمَ شباكَ الصمتِ
حلمْتَ بالذهابِ إلى مدرستِكَ فرحاً
ومن دون خوفِ الطائراتِ
ولا غبارَ سرطاناتِ الفوسفورِ الأبيضِ في جسدِ مدينتكَ
حلمْتَ أيضاً بالتخرّجِ والوظيفةِ التي يشكُركَ الوطنُ أنّك أحدُ أبنائِه
وظيفتُكَ جاهزةٌ فالعراقُ كريمٌ
والثرواتُ تتناثرُ هنا وهناكَ مثْلَ حبّات الملبّسِ فوقَ رؤوسِ الزائرينَ
وكنتَ تحلمُ بـ"كهرباءٍ وطنيةٍ" مثلَ قلبِكَ العراقيّ
الذي لمْ يهتفْ قبلَ موتِكَ إلاّ بأن يحيا العراقُ،
أحبّكَ يا عراقُ.
كنتَ تحلمُ أنْ تعودَ وتذهبَ في سفرةٍ سياحيةٍ معَ أصدقائِكَ إلى آثارِ بابلَ
وتمرَّ ببغدادَ لتسلِّمَ على عمِّكَ شلش العراقيّ
منْ دونِ أن تخافَ منْ "أبي طبرٍ" جديدٍ
سفّاحِ الرصافةِ[1] ومقابرِه الجماعيةِ خلفَ السدَّةِ
كنتَ تحلمُ أن تذهبَ ذاتَ يومٍ معَ جدّتكَ الحزينةِ على خطفِ

---

[1] هو الاسم المستعار لأحد أبرز قادة ميليشيات فرق الموت والذي قام بتصفية العديد من العراقيين ورمي ضحاياه في منطقة يطلق عليها خلف السدة، قريبة من مدينة الصدر.

عمّكَ للبحثِ عنهُ هناكَ،
دونَما خوف.
يا ابنَ كلِّ أمٍّ
بكَتْ أولادَها في سجونِ ما قبلِ ألفين وثلاثة وما بعدَها،
كلِّ أمٍّ صرختْ بعظامِ المقابرِ الجماعيةِ قبلَ وبعدَ الاحتلالِ.
يا ولدَ العراقِ،
يا عُمرُ،
أنتَ اختصارُ الشبابِ الذينَ لمْ يُخلَقوا في بلادِنا إلاّ للموتِ.
لماذا قدرُ أرحامِنا أن تتلوّى في حملٍ ومخاض سنواتٍ عجافٍ
ثمّ يخطفُ القدرُ العراقيُّ أولادَنا لموتٍ رخيصٍ،
لموتٍ خبيثٍ،
لموتٍ جبانٍ،
لموتٍ ليسَ لهُ معنىً سوَى أنّه ختمُ العراقِ المنكوبِ بلعنةِ الإمامِ عليّ.
يا عمرُ يا ابْنَ أمّهاتِ العراقِ حتّى اللواتي يخفينَ الحزنَ عليكَ ويصمتْنَ هناكَ في الجنوبِ
جميعُهنَّ يا عمرُ حزيناتٌ
لا تحزنْ يا ولدي يا ابْنَ العراقِ،
لأنّك اليومَ لمْ تكنْ ابنَ أمٍّ وحيدةٍ،
إنّكَ الآنَ ولدُ الأمّهاتِ في عراقٍ لا يتّسعُ إلاّ للموتِ

عراقٌ قدْ كتبْتَ فيهِ برحيلكَ أنَّ السلاحَ عدوٌّ فيهِ للأمّهاتِ
وعدوٌّ بلادِكَ الميتةِ بهَذِي القبورِ الحيّةِ المُسمّاةِ زوراً إنها حياة.

لا تحزنْ يا ولدي يا ابْنَ العراق،

لأنّك اليومَ لْم تكنْ ابنَ أمٍّ وحيدة،

إنّكَ الآنَ ولدُ الأمّهاتِ في عراقٍ لا يتّسعُ إلاّ للموت

عراقٌ قدْ كتبْتَ فيهِ برحيلكَ أنَّ السلاحَ عدوٌّ فيه للأمّهات

وعدوٌّ بلادِكَ الميتةِ بهذي القبورِ الحيّةِ المُسمّاةِ زوراً إنها حياة.

أمل الجبوري شاعرة ومؤسّسة رابطة القلم الدولية - فرع العراق عام ٢٠٠٧. ناشرة ومؤسّسة «دار شرق - غرب» للنشر. ترأس مجلس إدارة المؤسّسة الألمانية «ديوان الشرق - الغرب للثقافات» في برلين منذ عام ٢٠٠١. ترجمت عدداً من الكتب من الإنكليزية والألمانية إلى العربية. تقيم في لندن حيث تكمل تخصّصها في مادّة القانون - دراسات عليا في جامعة لندن، قسم الدراسات الشرق أوسطية والأفريقية - سواس.



DAR AL SAQI
دار الساقي


ISBN 978-6-14425-750-0
9 786144 257500